



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة محمد الصديق بن يحيى - جيجل -



قسم اللغة والأدب العربي

كلية الآداب واللغات الأجنبية

مذكرة بعنوان:

الرسالة الأندلسية موضوعاتها وخصائصها الفنية من منظور
قيم التجديد والتقليد (نماذج مختارة)

مذكرة مكملة لنيل شهادة الماستر في الأدب العربي
تخصص: أدب عربي قديم

إشراف الأستاذ:

عبد العزيز شويط

إعداد الطالبتين:

- آمال بولكساير

- مونية طموزة

أعضاء لجنة المناقشة:

رئيسا

مشرفا ومقررا

ممتحنا

1 - نور الدين سعيداني

2 - عبد العزيز شويط

3 - محمد زكور

السنة الجامعية: 1441/1442 هـ

الموافق لـ / 2021/2020م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

" رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ
وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأُدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ "

النمل، الآية: 19.

صدق الله العظيم

دعاء

اللهم إنّنا نسألك خير المسألة، وخير الدعاء، وخير النّجاح، وخير العلم،

وخير العمل، وخير الثواب، وخير الحياة، وخير الممات.

اللهم إنّنا نسألك علما نافعا ورزقا طيبا وعملا متقبلا.

اللهم إذا أعطيتني كالا فلا تأخذ سعادتني، وإذا أعطيتني قوة فلا تأخذ

عقلي، وإذا أعطيتني نجاحا فلا تأخذ تواضعي، وإذا أعطيتني تواضعا

فلا تأخذ اعتزازي بكرامتي.

وأخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين

به أمنا وعليه توكلنا ومنه نستمد العون والسّداد.

شكر وتقدير

قال الله تعالى: ﴿وَلَنُكْرِمَنَّكُمْ شُرَکَّتُمْ أَزِيدَنكُمْ﴾ .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « لا يشكر الله من لا يشكر الناس ».

فالحمد والشكر لله أولا حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه يليق بجلال قدره

ومحظّم شأنه على أن هدانا لنعمة العلم وسدّد خطانا وسيّر أمورنا صغيرها

وكبيرها وعلى توفيقه لإنجاز هذه المذكرة .

ثم الشكر والتقدير للأستاذ الفاضل المشرف على هذه المذكرة :

“شويط عبد العزيز”

الذي لم يبخل علينا بنصائحه وإرشاداته وملاحظاته القيمة والذي كان له الفضل

الكبير في إخراج هذه الدراسة فجزاه الله خير الجزاء.

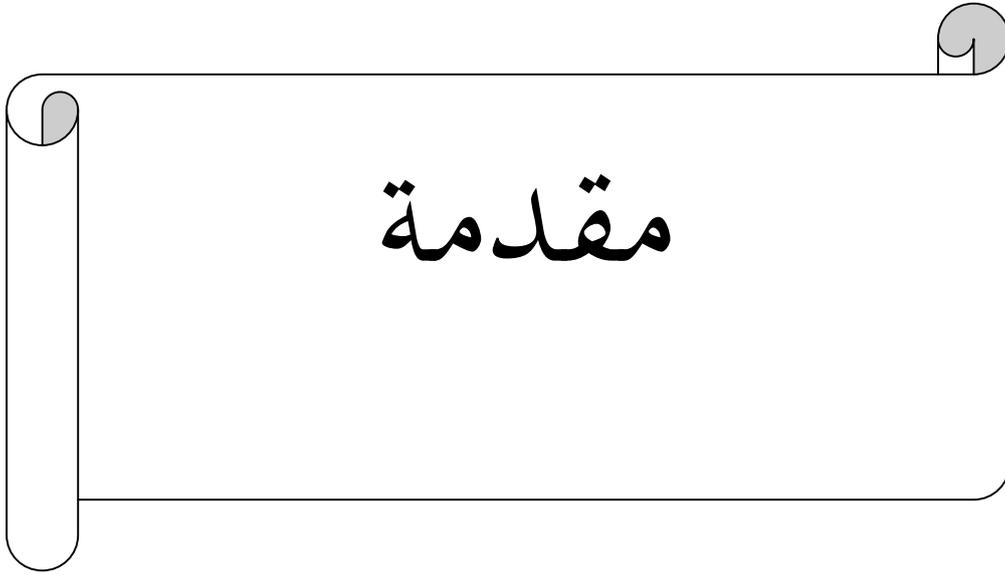
كما نتقدم بالشكر الجزيل والثناء الجميل لأعضاء لجنة المناقشة الذين تجشموا

عناء قراءة ومناقشة هذه الرسالة، وكذا جميع الأساتذة بكلية الآداب واللغات

كما نتوجه بأسمى عبارات التقدير والاحترام إلى كل من ساعدنا من قريب أو

من بعيد

والحمد لله أولا وأخرا.



بحمد الله نبتدى ونختم، وبتأييده إلى كل مراد نتقدم، وبالصلاة على رسوله المصطفى نترك، وبالسلام عليه نرجو أن يسهل علينا المسلك.

تطوّرت الفنون النثرية تطورا ملحوظا وقطعت شوطا بعيدا في مضمار الرقي والتقدم بعد الانفتاح الكبير على أمم أخرى وتمازج الثقافات، وكما هو معروف فإن الإنشاء رهين برقي الحياة وتطورها، فقد تعددت فنون النثر وطرائقه في الأندلس حتى أصبح يضم كل فنون النثر التقليدية وطرائقها. التي عرفها المشاركة من خطب ورسائل ومقامات ومناظرات، إلى جانب مازاده الأندلسيون عليها، وكانت الرسائل بأشكالها المختلفة في مقدمة هذه الفنون ازدهارا وتوسعا لأنها مرتبطة أشد الإرتباط بحياة الناس جميعا مما أملته ظروف حياتهم وبيئتهم الخاصة، ولهم في هذا وذلك قد أطلقوا على نثرهم طابعا مميزا كان وليد أمزجتهم وثقافتهم وأوضاع مجتمعهم وطبيعة بلادهم.

إن فنّ الرسالة كان صورة حيّة لمختلف مناحي الحياة السياسية والإدارية والاجتماعية والعقائدية بكل ما فيها، وأنّ الرسائل الأدبية من أشدّ الموضوعات اتصالا بالنفسيّة الشرقية ويزخر أدبنا العربي بها.

كانت الكتابة جسرا إلى أرفع المناصب، وكل من يريد أن يدخل ديوان الرسائل لابد له من إتقان صناعة الكتابة التي تتضمن إتقان اللغة والأسلوب، وكان لكاتب الرسائل حظًا في القلوب والعيون عند أهل الأندلس وأشرف أسمائه الكاتب.

وانطلاقا مما سبق فقد عزمنا على الخوض في غمار هذا البحث الموسوم ب: "الرسالة الأندلسية موضوعاتها وخصائصها الفنية من منظور قيم التقليد والتجديد"، والذي بدوره يقودنا إلى طرح الإشكالات التالية: ما المقصود بفن الرسالة؟ ماهي موضوعاتها وأغراضها؟ وكيف كانت نشأتها وتطورها؟ وفيما تمثلت خصائصها الفنية؟ ومن هم أشهر كتّابها في الأندلس؟ وفيما تجلّت الدراسة الفنية والموضوعية للرسائل؟.

تكمن أهمية هذه الدراسة في أن هذه الرسائل تعتبر مصدرا مهما لدراسة الحياة الثقافية والاجتماعية والسياسية وحتى العلمية في الأندلس، أما عن أهداف الدراسة تتمثل في محاولتنا تسليط الضوء على أهم السمات والخصائص الفنية التي امتازت بها هذه الرسائل.

ولعل الدافع الذي كان وراء اختيارنا لهذا الموضوع سبب ذاتي وآخر موضوعي، فالأول هو إعجابنا بفن الرسالة ومدى بروز قيمته في تراثنا العربي، والثاني هو إيماننا بأن التراث الأندلسي تراث إسلامي مشترك، يجب إحيائه وبعثه من جديد لينير لنا بعض الجوانب من تاريخنا الأدبي والفكري، والتي مازالت بحاجة للدراسة والبحث. وقد انتهجنا في دراستنا هذه منهجا تاريخيا مع الاعتماد على إجراءات المنهج التحليلي الوصفي وذلك تماشيا مع طبيعة الموضوع المطروق، وذلك في حديثنا عن تطور هذا الفن، وأيضا لتناولنا للرسائل من حيث الموضوعات والخصائص الفنية.

وللإجابة عن إشكالية البحث سار بحثنا على دراسة تتمحور في مقدمة ومدخل وفصلين وخاتمة.

فالمدخل تناولنا فيه حركة التعليم في الأندلس، أما الفصل الأول فكان يندرج تحت عنوان فن الرسالة والنثر الأندلسي، فتطرقنا في الأول إلى مفهوم الرسالة، أما الثاني فتناولنا فيه النشأة والتطور أما الثالث فخصصناه في الموضوعات والأغراض، أما الرابع فعرضنا فيه على أهم الخصائص الفنية، فالخامس يتضمن أشهر كتّاب الرسائل في الأندلس.

أما الفصل الثاني فكان خاصا بالدراسة التطبيقية فتعرضنا من خلاله إلى البناء الفني للرسالة ثم السمات اللغوية، لنتقل بعدها إلى دراسة موضوعية في نماذج مختارة.

وأخيرا بحثنا بخاتمة تتضمن مجموعة استنتاجات توصلنا إليها من خلال هذه الدراسة.

وقد اعتمدنا في بحثنا هذا على جملة من المصادر التي ساعدتنا في خدمة الموضوع

نذكر منها: أدب الرسائل في الأندلس لفايز عبد التّبي القيسي، الأدب العربي في الأندلس لعبد العزيز عتيق، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام الأندلسي ورسائل ابن أبي الخصال لعبد الله بن أبي الخصال.

وقد اعترضتنا في إنجاز هذا البحث بعض الصعوبات منها:

قلّة المصادر والمراجع، أيضا تداخل فصول ومباحث هذا البحث بعضها مع بعض وتشابك مضامين الرسائل وتمازجها، ممّا يجعل تفصيل وتبسيط المادة أمرا يشبه عسيرا.

ولا ريب أن العرفان بالجميل يقتضي ممّا أن نتوجه بعظيم تقديرنا وجزيل شكرنا الخاص للأستاذ الدكتور:

عبد العزيز شوّيط الذي لم يخل علينا بتوجيهاته القيمة وآرائه السديدة في سبيل إنجاز هذا العمل.

وفي الختام نقول أن هذا البحث لا يرقى إلى درجة الكمال، وعليه فإن أصبنا فذلك توفيق من الله عزّ

وجلّ، وإن أخطأنا فممّا النقص الذي جُبلت عليه النّفس البشرية.

والله ولي التوفيق.

مدخل:

حركة التعليم في الأندلس

تعرضت بلاد الأندلس لمجموعة من الأحداث الكبرى والتطورات التاريخية الحاسمة التي كان لها دورها في اختلاف تلك الحقبة الزمنية عما سبقها، لا في المجال السياسي وحسب، وإنما في جميع مظاهر الحياة الاقتصادية والاجتماعية والعلمية...إلخ.

النشاط العلمي في الأندلس:

شهد مطلع القرن الخامس هجري سقوط دولة الخلافة في الأندلس على ما كان لها من بهاء وعظمة، وتناثر الدولة الأندلسية الموحدة في ممالك صغيرة، عرفت بالطوائف أضاعت هيبتها في قلوب أعدائها وتسببت في اندثار بلادهم أيضا، ومن أبرز أحداث الق 5 هـ، أيضا سقوط مدينة "طليطلة" الإسلامية على أيدي ملك "قشتلة الأندفونتش"، وتحولها إلى عاصمة المملكة النصرانية، وقد لعبت تلك المدينة دورا أساسيا في نقل المعارف الإسلامية والعلوم العربية إلى أوروبا وإلى اللغة اللاتينية، مما كان له أثره القوي في تقدم الخطوات الأوروبية بثقة أكبر نحو عصر النهضة¹.

بدأ المسلمون فتح بلاد الأندلس عام 92هـ/111م، وتمكنوا من السيطرة عليها تماما في عام 714هـ/95م نتيجة للجهود التي بذلها كل من "موسى بن نصير" ومولاه "طارق بن زياد" وذلك في عصر الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك بن مروان 86-89م. وصارت الأندلس منذ ذلك الحين إمارة إسلامية تتبع إلى الخلافة بالمشرق ويعين عليها الخليفة واليا من قبله وقد عرفت الفترة الممتدة من 95-138هـ/714-755م بعصر الولاة².

¹ محمد عبد الحميد عيسى، تاريخ التعليم في الأندلس من القرن الخامس إلى سقوط الأندلس، مؤسسة أهل البيت، التربية العربية الإسلامية (المؤسسات والممارسات)، ج2، دار الفكر العربي، القاهرة، ط1، 1982، ص469.

² عبد الرحمان بن عبد الله، فتوح إفريقية والأندلس، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1987، ص69، نقلا عن أبو العباس أحمد بن عذارى، بيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، حققه ج-س كولان وليفي برفنسال، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ج2، ص05.

لقد بذل المسلمون خلال هذه الفترة جهوداً كبيرة لدعوة الناس إلى الإسلام وعملوا له بإخلاص أصيل وعمق بعيد في سلوكهم وتعاملهم ودعوتهم وتغيير بذلك وجه الحياة في جنبات الجزيرة، وغدت الأندلس رباط جهاد وموئل حضارة ومنبت إنسانية كريمة¹.

والجدير بالذكر هنا أن الدولة الأموية في الأندلس اهتمت بالعلم والعلماء وطلابهم وشجعت على طلب العلم، انطلاقاً من حث القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة عليه، قال تعالى: "يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ" المجادلة الآية 11.

وقال عز وجل: "قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ" الزمر الآية 9.

وقال عز وجل: "إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ" فاطر الآية 28.

وقال رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم: "طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة"².

أماكن التعليم في الأندلس:

كان المسجد هو المدرسة الأولى التي يتلقى فيها الأندلسيون تعليمهم، كما كان الحال في بلاد المشرق قبل نشأة المدارس، ولذلك فإن معظم مساجد الأندلس لاسيما في المدن الكبرى مثل "قرطبة" "العاصمة"، و"طليطلة" و"إشبيلية" و"غرناطة" و"بلنسية"... وغيرها، زاخرة وعمارة بحلقات العلم، وكان يدرس في هذه الحلقات العلمية جلّ هؤلاء العلماء وكان مسجد "قرطبة" "الجامع" يمثل قمة النشاط العلمي في الأندلس، وكان

¹ عبد الرحمان علي الحجي، تاريخ الأندلس منذ الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة، دار القلم، دمشق، ط3، 1907، 1987، ص39.

² ابن ماجه أبو عبد الله بن محمد بن زيد القزويني، (ت275)، سنن ابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، المكتبة العلمية، بيروت، لبنان، مجلد(1)، حديث رقم (224).

مسجد مدينة الزهراء التي انتقلت إليها مؤسسات الدولة في عصر الخلافة من المساجد التي شهدت حركة علمية نشطة¹.

ومن أمكنة التعليم الأخرى التي عرفتها بلاد الأندلس (المكاتب، المكتب) عبارة عن مكان يتسع لمجموعة من الأطفال وقد يكون غرفة في منزل أو حانوتا يكترى أو فناء، ولم يكن له مكان معين يقام فيه...².

وكانت "قرطبة" تكتظ بكتاتيب أخرى قبل الكتاتيب التي أنشأها الحكم، وكان معلم الكتاتيب يسمى "مؤدّبا" وكان يأخذ أجرا على تعليمه الناشئة³.

ومن أمكنة التعليم أيضا منازل العلماء وقصور الحكام والأمراء، فهناك ظروف معينة حتمت على بعض العلماء القيام بالتدريس في منازلهم، كما كان الأمراء يتخذون بعض المؤدّين لأبنائهم وهذا يقتضي بالطبع أن يتم التعليم داخل القصر السلطاني⁴.

ونحن في هذا المقام نشير إلى أن المنهج التعليمي في الكتاتيب كان يشتمل على تحفيظ القرآن الكريم وبعض نصوص الحديث النبوي وتعليم النحو والكتابة والخط مع تحفيظ بعض النصوص من الأشعار والرسائل البارعة⁵.

¹ سعد عبد الله، الحياة العلمية في عصر ملوك الطوائف في الأندلس، 422-488هـ، منشورات مركز فيصل، الرياض، 1414هـ/ 1993م، (رسالة ماجستير).

² محمد عبد الحميد عيسى، تاريخ التعليم في الأندلس، ص220-221.

³ شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي (عصر الدولة والإمارات-الأندلس، دار المعارف، د ط، مصر، 1989، ص61).

⁴ يوسف العريفي، الحياة العلمية في الأندلس في عصر الملوك والطوائف، منشورات مكتبة الملك عبد العزيز العامة، الرياض، 1416هـ-1995م، ص143.

⁵ محمد أبو إمام، جوانب من النشاط العلمي في الأندلس خلال العصر الأموي، دراسات دعوية، العدد 11-يناير، 2006م.

ويرجع إلى الخليفة "الحكم المستنصر" تأسيس أول جامعة في قرطبة وكانت المناهج فيها متقدمة جدا، فقد اشتمل المنهج على تدريس اللغة العربية بفروعها المختلفة والعلوم الدينية والتاريخ، إضافة إلى القضاء وشيء من العلوم الطبية بصورة عملية والرياضيات والفلك... وصارت "قرطبة" ومن بعدها "طليطلة" من أحب المناطق العلمية للأوروبيين الغربيين، وقد نالت المرأة الأندلسية نصيب من التعليم أيضا، إذ يروى أنه كان "بالربض الشرقي من قرطبة" مائة وسبعون امرأة كلهنّ يكتبن المصاحف بالخط الكوفي هذا في ناحية فقط من نواحيها¹.

واستخلاصا لما سبق هذه بعض جوانب من نشاط الأندلسيين العلمي، حيث رأينا تضافر جهود الحكام والرعية والعلماء في دفع المسيرة العلمية وتقدمها، ولم يتوان الحكام في تقديم أي عون مادي أو معنوي حتى صارت بلاد الأندلس تنافس بلاد المشرق في كثير من المجالات العلمية، بل أصبحت قبلة للطلاب والعلماء المشاركة الذين كانوا يجدون فيها كل رعاية وعناية وترحاب.

تطور الحركة العلمية:

مضى على الوجود الإسلامي في الأندلس أكثر من ثلاثة قرون كاملة، وهي فترة كافية لكي تنضج ثمار الحضارة الإسلامية في هذه البلاد، وتأتي أكلها، لا في مجال الحياة العلمية وحسب، بل في مناحي الحياة الإنسانية جميعا.

ولقد لعبت الجهود خلال هذه القرون دورها العظيم في التمازج بين الحياة الفكرية الإسلامية على أرض الأندلس والحياة الفكرية والإسلامية في الشرق الإسلامي. ومن ثم في التقارب والالتقاء، فكانت الرحلة بين الإقليميين طردا وعكسا أحد هذه الجهود التي أدت دورها ببراعة في هذا المجال، وقد اختلف المقصد وتباينت الغاية بين الأولى والثانية، فبينما كان مقصد الرحلة الأولى طلب العلم والمعرفة والنهل من مصادر الثقافة والفكر في الشرق

¹ محي الدين بن عبد الله المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان، القاهرة، 1387هـ-1967م، ص 456-457.

الإسلامي، كان غرض الرحلات إلى الأندلس طلب الشهرة العلمية والمال ورفاهية العيش، وكان للرحلة في الاتجاهين أثرها المباشر في التقارب الفكري والثقافي بين العقليتين، بل يمكننا القول بأنهما "تماثلا في حياة الترف العقلي وتغير الحياة الاجتماعية وأثرها في النفوس والعقول"¹.

والحق أن النهضة العامة في الأندلس كانت الثمرة اليانعة للعلوم والآداب والفلسفة إلى جانب ثمرات أخرى لجنت أنت أكلها لا في ميدان الأندلس فقط، ولا في ميدان الحياة الإسلامية العقلية وحدها. بل في ميدان الحياة الإنسانية كلها².

ومما لا شك فيه أن طلبه العلم في الأندلس يبدوون مشوارهم العلمي في بلادهم، حتى إذا بلغوا حدا معين من العلم، وجدوا أنفسهم في حاجة ماسة إلى الرحلة لتحصيل علوم ومعارف أعظم علماء المسلمين في المشرق، ونقل مؤلفاتهم إلى الأندلس وبنها بين أهلها من أجل ذلك كثرت رحلات الأندلسيين إلى مراكز التعليم (القيروان، مصر، الحجاز...) حتى كان الفرد منهم يشرف بين بني قومه³.

والحقيقة لا يختلف عنها اثنان، أن الثقافة في الأندلس انتشرت وعمت ظاهرة التعليم والتعلم خلال هذه الحقبة، فمست كل الشرائح الاجتماعية ولا نستثني حتى الفقراء والضعفاء من عامة الناس، ضف إلى ذلك أنه كان من مظاهر الحياة الثقافية والفكرية في الأندلس ظهور الروح أو الشعور بالأندلسية، وقد بدا واضحا في عنايتهم بجمع تراثهم وكتابة تاريخ الأندلس والترجمة لأعلامها في جميع الميادين، وكانوا شديدي التعصب لبلادهم،

¹ مصطفى أحمد علي السيوي، ملامح التجديد في النثر الأندلسي خلال القرن ال 5هـ، عالم الكتب، بيروت، دط، 1405 هـ/1985م، ص61.

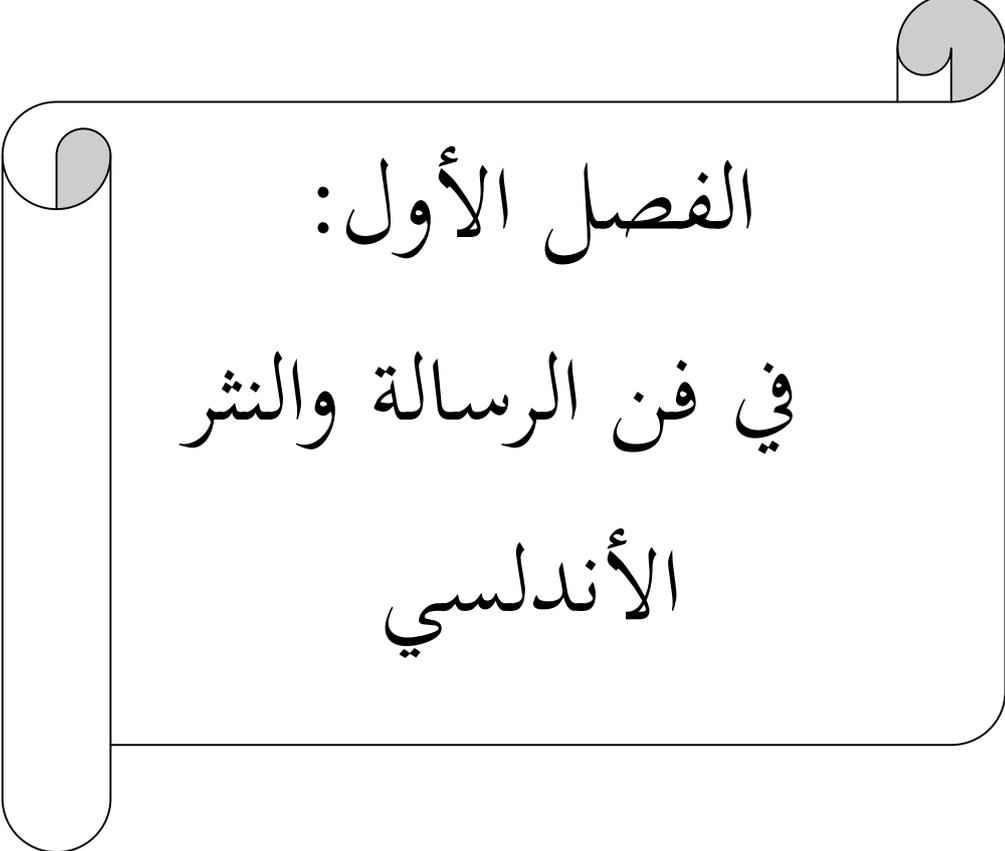
² المرجع نفسه، ص58.

³ حاج عبد القادر يخلف، الإسهام الفكري للبربر بالأندلس من العهد العامري إلى نهاية الوجود المرابطي، رسالة ماجستير، قسم التاريخ وعلم الآثار، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، 2008-2009م، ص10.

نرى ذلك من أنسابهم فلا نكاد نجد عالما وأديبا إلا ذي نسب لبلده¹. وكذلك قدوم علماء من المشرق مثل "أبو علي القالي".

وفي الختام يتبين لنا مدى اهتمام الأندلسيين حكّاما وعمامة بالتعليم وكيف تدرّجوا في مراحلهم منذ الصغر الباكر، إلى أن وصلوا إلى مراحل متقدمة من السن والعلم، وكان ذلك هو السبب وتميز صقع الأندلس حتى آخر أيامه بالكثرة من العلماء والأدباء والفقهاء وأهل العلم عامة الذين لم يقتصر جهدهم على بلاد الأندلس وإنما كانوا الوقود الذي أضاء نور العلم في كثير من بقاع العالم الإسلامي. ومن ناحية أخرى كان حكام الأندلس قدوة دائما في علمهم وأدبهم وظهر منهم العلماء والشعراء والأدباء، كذلك كان لهذه البلاد ونهضتها العلمية الأثر الخالد في نقل المعارف الإسلامية إلى الجانب النصراني في بلاد الأندلس.

¹ أنور محمود زناقي، العمل والتعليم في الأندلس، مقالات متعلقة بشبكة الألوكة، 1436هـ-2015م، ص6.



الفصل الأول:
في فن الرسالة والنثر
الأندلسي

إذا كان التطور أمراً طبيعياً في النثر كما هو في غيره من بقية الفنون فإن الدارسين يقسمون النثر عادة إلى مجموعة من الفنون بحيث يدرسونه من حيث هو رسالة أو خطبة أو وصية...، وغالباً ما يتوقفون عند الرسالة، فلدراسة أي جنس أدبي لابد من الولوج إلى بعض المفاهيم النظرية المتعلقة بهذا الجنس ونشأته وتطوره، إضافة إلى البحث في بنيته الشكلية ومضامينه الفكرية والاجتماعية والثقافية...، كما هو الحال مع فن الرسائل الأدبية.

أولاً/ الرسالة الأدبية في فضاء المصطلح والمجال:

تعد الرسالة من أبرز الفنون العربية القديمة، وهي أحد الأجناس الأدبية الأكثر انتشاراً وتداولاً بين عامة الناس، غير أن تسميات وخصائص هذا الفن تتعدد وتختلف باختلاف أنواعها وأغراضها على مر العصور.

أ/ الرسالة لغة:

إذا ما نظرنا في المعاجم العربية لاحظنا أن لمصطلح "رسالة" معاني متعددة ومتنوعة، إذ يندرج المفهوم اللغوي لـ"رسالة" تحت الجذر اللغوي "ر س ل"، فقد ورد في لسان العرب: "الإرسال التوجيه وقد أرسل إليه والإسم والرسالة والرسول والرّسّيل... والرسول بمعنى الرسالة يؤنث ويذكر والرسول معناه في اللغة أن يتابع أخبار الذي بعثه..."¹.

أما في القاموس المحيط: فقد ورد تعريفها كالتالي: "الإرسال، التسليط والإطلاق والإهمال والتوجيه، والإسم الرسالة بالكسر والفتح وكصبور وأمير، والرسالة والرسول أيضاً المرسل ج: أرسل ورُسِّل وزملاء والموافق لك في النضال ونحوه"².

¹ ابن منظور محمد ابن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، ط3، 1414هـ، ج11، مادة رسل، ص283.

² محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، القاموس المحيط، تحقيق مكتب التراث في مؤسسة الرسالة، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، بيروت لبنان، ط8، 1426هـ-2005م، مادة رسل، ص1006.

وفي المعجم الوسيط: "الرسالة ما يرسل، والرسالة الخطاب: والرسالة كتاب يشتمل على قليل من المسائل تكون في موضوع واحد، أي أن مادة رَسَل، تكاد تتفق وتجتمع على معنى واحد وهو الدلالة على الانبعاث والتوجيه مع التَّؤدَّة والوقار"¹.

في حين جاء في معجم مختار الصحاح: "رأسله مُراسلة وهو مراسل ورسيل وأرسله في رسالة فهو مرسل أو رسول، والجمع رُسُل (بتسكين السين وضمها)... والرَّسُول أيضا الرِّسالة"².

وبهذا المعنى تكون الرسالة موجزة لا تتعدى سطور محدودة، معنى الرسالة أصلا كلام مكتوب يبعث من إنسان إلى آخر لغرض أغلب ما يكون محض شخصي، إلا أن الرسائل الأدبية لا تنحصر تحت هذا المفهوم الدقيق.

إذا ولينا وجوهنا شطر القرآن الكريم فإننا نلاحظ بأن لفظ "رسالة" وردت في الكثير من المواضع، حيث نجدها: بمعنى أرسلنا فيكم رسولا يتلوا عليكم الآيات المبينة للحق من الباطل، في قوله تعالى: "كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَ يُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ يُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ" (البقرة 159).

كما جاءت بمعنى الهداية أي رسالة في الترغيب والترهيب والنصح في قوله تعالى: " فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولًا مِنْ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَ لَكِنْ لَا يُجِبُونَ النَّاصِحِينَ" الأعراف 79.

كما نجدها أيضا بمعنى رسالة صدق في الوعد في قوله تعالى: " وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا" مريم 54.

¹ مصطفى إبراهيم وزملاؤه، المعجم الوسيط، مج اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، د ط، 2005، ص 344.

² عبد القادر الزازي: مختار الصحاح، مكتبة لبنان، بيروت، د ط، 1988، ص 242.

في حين وردت في موضع آخر بمعنى السلامة من عذاب الله لمن اتبع هواه في قوله عز وجل: "فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى" طه 47.

حيث وردت أيضا بمعنى وما أرسلنا قبلك أيها الرسول إلا رجالا من البشر نوحى إليهم ، في قوله عز وجل: "وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَسَتَلُؤْا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ" الأنبياء 7.

من خلال التعريفات التي تطرقنا إليها، نستخلص بأن للفظ رسالة مدلولات متنوعة وعديدة، فكل مدلول يختلف عن الآخر، وله معناه الخاص، إذ يمكننا القول بأن "الرسالة" في تعريفاتها اللغوية عبارة عن مشتقات من مادة "ر س ل" ، فهي تقارب معنى التواصل بأي وسيلة ممكنة، فالرسالة شيء يرسل من طرف إلى آخر بغرض التبليغ والإيصال.

ب/ الرسالة اصطلاحا:

إذا كان للرسالة تعاريف لغوية، فلا بد أن يكون لها بالضرورة تعاريف اصطلاحية، فالرسالة بمعناها الاصطلاحي تتجاوز المعنى اللغوي إلى حد معين. وبالتالي فإنه يقدم لمسة جديدة على المعاني لتعطي لها حلة جديدة.

من بين هاته التعاريف: نجد "محمد التهنوي" يعرف الرسالة بقوله: "أن الرسالة في الأصل الكلام الذي أرسل إلى الغير وخصه في اصطلاح العلماء بالكلام المشتمل على قواعد علمية، والفرق بينهما وبين الكتاب على ما هو مشهور، إنما بحسب الكمال والنقصان، فالكتاب هو الكمال في فن الرسالة، غير الكامل فيه"¹.

¹ محمد بن علي التهنوي الحنفي، كشاف اصطلاحات الفنون، د ط، د ت، مج 2، ص 255.

كما ربط "أبو هلال العسكري" في تعريفه للرسالة بين الرسالة والخطبة فهو يرى: "أن الرسالة تقابل الخطبة، إذ لا فرق بينهما إلا بالتسمية فقط وذلك على أساس تشاكل الألفاظ والفواصل وما إلى ذلك من سهولة وعذوبة وتحرر من الأوزان والقوافي، إلا أن الخطبة تلقى متفاهمة على الجمع من الناس والرسالة تحبَّر ثم تبعث بها، من السهل أن تجعل الرسالة خطبة والخطبة رسالة"¹.

هذا يعني أن الرسالة تقابل وترادف الخطبة، فلا فرق بينهما إلا بالتسمية فقط .

أما لو نظرنا إلى التعريف الاصطلاحي في كتاب (جواهر الأدب) فنجد الرسالة بأنها: "مخاطبة الغائب بلسان القلم... مع تباعد البلاد وطريقة المكاتبة هي طريقة المخاطبة البليغة مع مراعاة أحوال الكاتب والمكتوب إليه وبالنسبة بينهما"².

ولعل هذا ما قصده أيضا "جبور عبد النور" في (معجمه الأدبي) يقول: "الرسالة هي كل ما يكتبه امرؤ إلى آخر معبرا عن شؤون خاصة أو عامة وتكون الرسالة بهذا المعنى موجزة لا تتعدى سطورا محدودة، وينطلق فيها الكاتب عادة على سجيته بلا تصنع أو تأنق، فيرتفع بها إلى مستوى أدبي رفيع..."³.

وبالتالي فإن الرسالة لها ميزات وسمات فنية وأسلوب منفرد في الكتابة، وتقوم على عملية مخاطبية بين طرفين بغية توصيل غرض وفكرة معينة.

قال القلقشندي أيضا في (صبح الأعشى): "هي جمع رسالة، والمراد فيها أمور يرتبها الكاتب من حكاية حال من عدو أو صيد أو مدح وتقريض ومفاخرة بين شيئين أو غير ذلك مما يجري هذا المجرى، وسميت رسائل من

¹ أبو هلال العسكري، الصنائع، الكتابة والشعر، تحقيق علي محمد الجاوي وزملائه، المكتبة العنصرية، بيروت، لبنان، 1419هـ، ص435.

² أحمد الهاشمي، جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، ج1، د ط، د ت، ص44.

³ جبور عبد النور، المعجم الأدبي، دار الملايين، بيروت، ط2، 1984، ص122.

حيث أن الأديب المنشئ لها ربما كتب بها إلى غيره مخبراً فيها بصورة الحال، ففتحه لما تفتح به المكاتبات ثم توسع فيها فافتتحت بالخطب وغيرها¹.

انطلاقاً من هذه التعاريف نخلص إلى أن الرسالة باب من أبواب النثر الفني الجميل، الذي يعد نداء للشعر وكفؤاً له، ولهذه الأخيرة بناء خاص وشكل فني معروف وسمات معينة هي بمثابة الأركان الأساسية التي تبنى عليها، والتي لا بد من توافرها وإيذائها في كل قطعة نثرية تنتمي إلى أدب الرسائل.

ج/ الرسالة في الأندلس:

لم يتناول أحد من نقاد العرب القدامى مفهوم أدب الرسائل بالتفصيل، وجل ما نجده عن أدب الرسائل آراء متناثرة في عدد من مصادر النقد الأدبي القديمة، وقد اصطاح الأدباء الأندلسيون لفظ "رسالة" في كتاباتهم على اختلافها منذ عهد مبكر، كما يشير إلى ذلك كثير من النصوص الأدبية والتاريخية والأندلسية، نذكر منها الأمالي، الذخيرة، نفح الطيب، العقد الفريد...إلخ.

كان الأدباء الأندلسيون يطلقون لفظ رسالة على ما ينشئه الكاتب في نسق فني جميل في غرض من الأغراض، ويوجهه إلى شخص آخر، ويشمل ذلك الجواب والخطاب، ومن ذلك ما ورد في الرسالة الجوابية التي بعث بها "أبو جعفر أحمد بن عباس" لأبي المغيرة بن حزم، إذ كتب إليه يقول: "ورأيت ما نخلته الرسالة المعربة عن فنون البراعة وأعرتها من بدائع الصناعة التي لورام نبدأ منها بديع الزمان أو عمر بن عثمان لترددا يخطبان عشواء، وأصبحا في حجلة يطلبان النجاة..."².

¹ أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاد، المؤسسة المصرية العامة للطباعة والنشر، ج14، د ط، د ت، ص438، 139.

² ابن بسام الأندلسي، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 542هـ، ص654، نقلاً عن فايز عبد النبي القيسي، أدب الرسائل في الأندلس، دار البشير، عمان، الأردن، ط1، 1409هـ، 1979م، ص78.

فظاهر سياق الكلام يدل على أن "أبا جعفر بن عباس" قد أطلق على ما كتبه إليه أبا المغيرة، نثر لفظ رسالة.

وكانوا أيضا يرجعون هذه الأخيرة أحيانا إلى "القصاصد والمقطوعات الشعرية التي ينظمها الشاعر على شكل خطاب موجه إلى صديق أو غيره في أي موضوع، ويبدوا ذلك واضحا في عديد من الأخبار والنصوص التي انتهت إلينا"¹.

إذ نجد "عبد العزيز عتيق" يقول: "الرسالة قطعة من النثر الفني تطول أو تقصر تبعا لمشيئة الكاتب وغرضه وأسلوبه، وقد يتخللها الشعر إذ رأى ذلك سبب، وقد يكون هذا الشعر من نظمه، أو ما يستشهد به من شعر غيره، وتكون كتابتها بعبارة بليغة وأسلوب رشيق، وألفاظ منتقاة ومعاني طريفة"².

من خلال هذا التعريف تبين لنا أن الرسالة تحتوي على عناصر فنية، دقة في الأسلوب ونقاوة في الألفاظ وجزالتها، وحسن المعنى وسلاسته.

في حين نجد "فايز القيسي" هو الآخر يقول: "الرسالة لون من ألوان النثر الفني الجميل وضرب من ضروبه التي تنهال على القريحة انھیالا، ولا يكاد يختلف مفهوم الرسالة الفنية عند الأندلسيين عن مفهومها عند المشاركة، فالأدب في عرفهم جميعا ينقسم إلى أصليين أساسيين منظوم ومنثور، والمنثور منه الخطب والرسائل، وهما فن واحد أو أفنان متقاربان يقابلان الشعر"³.

¹ ابن بسام الأندلسي، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، المرجع السابق، ص332.

² عبد العزيز عتيق، الأدب العربي في الأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، ط2، 1976، ص448.

³ فايز عبد النبي القيسي، أدب الرسائل في الأندلس، دار البشير، عمان، الأردن، ط1، 1409، 1979، ص83.

كما نجد في كتاب التعريفات تعريف آخر للرسالة: " هي المجلة المشتملة على قليل من المسائل التي تكون من نوع واحد والمجلة هي الصحيفة يكون فيها الحكم"¹.

أما "المقري" في حديثه عن الكتابة يقول: هي على ضربين: أعلاهما كاتب الرسائل وله حظ في القلوب والعيون عند أهل الأندلس وأشرف أسمائه الكاتب، وأهل الأندلس كثيرو الانتقاد على صاحب هذه السمة، لا يكادون يغفلون عن عثرتهم فإن كل ناقص عن درجات الكمال لم ينفعه جاهه ولا مكانته ولا سلطانه من تسلط الألسن في المحافل والطعن عليه وعلى صاحبه والكاتب الآخر هو كاتب "الزمام" ولا يكون نصرانيا ولا يهوديا"².

من الألفاظ المرادفة لمصطلح رسالة في الأدب الأندلسي لفظ كتاب فقد ذلّ هذا اللفظ منذ البداية الأولى لأدب الرسائل في الأندلس على ما كان يدل عليه لفظ "رسالة"، فهو الإشارة إلى النص المكتوب الذي يبعث به الكاتب إلى غيره في أي موضوع، ومنذ ذلك ما جاء في الرسالة الجوابية التي بعث بها "الوليد بن عبد الرحمان" إلى الوزير الأسير هاشم بن عبد العزيز، إذ كتب إليه يقول: "ورد كتابك يا سيدي، فسكن من حرقى بك وأطفأ من علتي فيك وهذا هو عوّيلي عليك"³.

يعني هذا أن استعمال لفظ "كتاب" وكثرة اتخاذ المرسلين له في مكاتباتهم المختلفة الرسمية خاصة صار مرادفاً للفظ "رسالة" وموازيا له في المعنى والدلالة.

ولا يفوتنا أيضا أن نشير إلى أن لفظ "كتاب" مرادف للفظ "صحيفة" إذ كان يراد به أحيانا ما يراد به لفظ كتاب، كما يظهر واضحا فيما ورد في بعض رسائل الأندلسيين ومكاتباتهم المختلفة"⁴.

¹ محمد بن علي الحسيني الجرجاني الحنفي، التعريفات، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1424هـ، 2002م، ص113.

² أحمد بن محمد المقري، نفع الطيب من غصن الأندلس، ج1، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط1، 1968، ص217.

³ فايز عبد النبي القيسي، أدب الرسائل في الأندلس، المرجع السابق ص81.

⁴ مرجع نفسه، ص82.

فالمواضح لنا من هذا المعنى أن لفظ صحيفة لم يتسع كثيرا في الأندلس فقد توارى الأدباء خلف لفظي رسالة وكتاب.

كذلك يمكن القول أن لفظ رسالة في الأدب الأندلسي كان يقصد به "الرسالة النثرية الفنية أي القطعة النثرية يدبجها الكاتب في نسق في جميل في غرض من الأغراض ويبحث بها إلى شخص آخر"¹.

ووفقا لهذه التعاريف ارتأى لنا أن الرسالة في الأندلس جنس أدبي يحمل في طياته معاني عديدة، فهي فن قولي وكتابي له وظيفة إبلاغية تواصلية من شأنها الإيضاح والتيسير، وتنطلق من غرض وهدف مقصود من الكاتب نحو الطرف الثاني الذي هو المتلقي أو القارئ، عن طريق استعمال لغة فنية بلاغية تمتاز بالدقة والسلاسة.

ثانيا/ النشأة والتطور:

إن العامل الأساسي والأهم والذي كان وراء نشأة أدب الرسائل وتطوره تطورا كبيرا إنما هو "الإسلام" وما تبعه من الفتوحات والتي أدت بدورها إلى إحداث تطورات في الميادين الاجتماعية والسياسية والثقافية وغيرها وذلك نتيجة الامتزاج بين الشعوب المجاورة للعرب وغيرها.

إن وجود الكتابة الفنية وتطورها ومن ضمنها أدب الرسائل إنما هو ثمرة من ثمرات الإسلام وحضارته، لأن الظروف اقتضت منذ بداية ظهور الإسلام إلى استخدام الرسائل، "فهذا النبي يراسل أولي الأمر في الداخل والخارج للدخول في الدين الجديد وكان من الطبيعي أن يستخدم كُتَّابا يملي عليهم ما يوحى خلفاؤه من بعده يستخدمون كاتب ويملون عليهم من الطبيعي ما يهم شؤون المسلمين وحياتهم"².

¹ ابن بسام الأندلسي، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ص11: نقلا عن فايز عبد النبي القيسي، أدب الرسائل في الأندلس، ص80.

² الطاهر توات، أدب الرسائل في المغرب العربي، ج1، ديوان المطبوعات الجامعية، ط2، ص79.

ومما يحسن ذكره أن أدب الرسائل قد راج رواجاً كبيراً في عصر صدر الإسلام، وذلك " بسبب مجيء النبي صلى الله عليه وسلم برسالاته السماوية عن طريق الوحي الذي انزله الله تعالى عليه في قوله: " إقرأ باسم ربك الذي خلق " (العلق الآية 1)، حيث تميزت هذه الفترة بالفتوحات الإسلامية التي قام بها الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ارتقاء بكل مناحي الحياة، مما أدى إلى التقدم في جميع الميادين الثقافية والدينية... إلخ، فقد بدأ تطور الكتابة في هذه المرحلة بالتحديد بعد أن تعود الناس على التدوين وأقبلوا على نظم ما تستهوي نفوسهم"¹.

وسارت الأمور هكذا إلى أن أسس الأمويون ديوان الرسائل من ضمن الدواوين الأخرى، " وفي عهد معاوية بن أبي سفيان" تم تطور الديوان وتطور أدب الرسائل ذلك التطور الذي عرفناه في القرن الرابع الهجري وعليه فقد أصبح للرسائل قيمة كبرى في المجتمع الإسلامي، ولا سيما الرسمية منها، وهذا نظراً لدورها المهم في تنظيم الحياة الدينية والدينية للمسلمين"².

قد اهتم الأندلسيون منذ الفتح الإسلامي بالمراسلات التي عرفت فيما بعد بالرسائل الديوانية، ولاسيما أنهم كانوا متمكنين من الخطابة والشعر والكتابة منذ أول قدومهم إلى تلك البلاد، كما يؤكد ذلك ابن بسام بقوله: " إنَّ أهل هذه الجزيرة مذ كانوا رؤساء خطابة ورؤساء شعر وكتابة"³.

فلا غرو إذن إذا ما قلنا بأن نشوء الدولة الإسلامية في الأندلس واختلاف مهامها، وتعدد وظائفها السياسية والاجتماعية والإدارية... إلخ، كان دافعا قويا لنشوء فن الرسالة ليؤدي هذه المهام وتلك الوظائف.

فعندما أخذت هذه الدولة الجديدة من التمدن والتحضّر بكل سبب زادت حاجتها إلى كتابة الرسائل الديوانية لتواكب مهامها الجديدة، وتساهم في تثبيت دعائمها وتسيير شؤونها وتنظيم مجتمعتها وإلى ذلك يشير

¹ سامي يوسف أبو زيد، الأدب الإسلامي والأندلسي، دار المسيرة، الأردن، ط1، 2012، ص339.

² حسين نصّار، نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، ط1، 2002، ص43.

³ ابن بسام الأندلسي، الذخيرة، المرجع السابق، ص14.

"ابن خلدون" بقوله: "وإنما أكد الحاجة إليها في الدولة الإسلامية شأن اللسان العربي والبلاغة في العبارة عن المقاصد، فصار الكتاب يؤدي كُنْهُ الحاجة بأبلغ من العبارة اللسانية"¹.

في حين نجد أن بداية الأدب الأندلسي نثرا وشعرا انطلقت من المساجد في بادئ الأمر، "فلم تكن لهم مدارس تعينهم في طلب العلم، ونجد الأندلسيين للأدب، هاجرت إليهم كتب المشاركة، وكثرت الرحلات إليها فتطورت الحركة الفكرية والأدبية فيها، ولم تكن بعيدة عن تطور بلاد المشرق. فنلاحظ أن الثقافة الشعرية واللغوية كانت أول ما يتعلمها الطالب في الأندلس، فهي طريقة أندلسية في التعليم، وهي أن العلوم الإنسانية لها مكان خاص إلى جانب العلوم الدينية"².

فمن الواضح أن جل هذه الثقافة كانت ترمي لجعل الأديب الأندلسي أديبا وشاعرا أندلسيا، والذي من خلاله يتطور أدب الرسائل تطورا ملحوظا من الناحيتين الموضوعية والفنية، وذلك بفضل التطور الأدبي والثقافي. قد اتخذ ولاية الأندلس وأمراؤه منذ بداية القرن الثاني هجري كتابا يكتبون لهم فيما يصدر عنهم من رسائل وعهود، "وفيما يكاتبون به عمالهم وولاتهم ويهددون به الخارجين على حكمهم، وكان أولئك الكتاب وإن لم يطلق عليهم إسم كتاب ديوان الرسائل يقومون بشيء من متعلقاته. وهذا يدفع الباحث إلى القول بظهور ديوان الرسائل في الأندلس منذ نهاية النصف الأول من القرن الثاني هجري"³.

وعليه فقد كان هذا القرن البذرة الأولى لتطور ديوان الرسائل فيما بعد حين دعت حاجة الدول المتطورة

إليه.

¹ عبد الرحمان ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، م1، دار الجيل للطباعة والنشر، ط1، 732-808 هـ، ص436.

² ابن بسام الأندلسي، الذخيرة، المرجع السابق، ص16.

³ أحمد بن محمد المقرئ، نفح الطيب، ج2، المرجع السابق، ص40. 41.

إذا ما أردنا التفصيل أكثر في نشأة وتطور فن الرسائل فإننا نجد بأنه تطور تطوراً كبيراً في القرن الخامس الهجري وتشعبت موضوعاته واتجاهاته وأغراضه تبعاً لتشعب أمور الحياة في المجتمع الأندلسي في هذا القرن، واقتحم على الشعر ميدانه وشاركه في أغراضه وفنونه.

ومهما يكن من أمر فقد تهيأ لفن الرسائل من عوامل الازدهار ما بوأه منزلة رفيعة في أدب القرن الخامس الهجري، "ومن هذه العوامل ما يتعلق بالانهيار السياسي الذي أصاب الأندلس بعد سقوط الخلافة وتجزؤ البلاد إلى دويلات صغيرة مستقلة، وما نجم عن ذلك من كثرة المشاحنات والخصومات بين ملوكها، وما كان من نشوب الحروب الداخلية، واشتعال الفتن، وسياسة البطش والإرهاب التي انتهجها بعض ملوك الطوائف مع رعاياهم، إضافة إلى انقسام الأمة واختلاف كلماتها¹.

كذلك كان لفساد الأحوال الاجتماعية في هذا القرن وانتشار الترف والبذخ واللهو في سائر جوانب المجتمع الأندلسي، "وانصراف ملوك الطوائف ووزرائهم عن مصلحة الأمة من المظاهر الكاذبة وانشغالهم بشرب الخمر وارتكاب المعاصي، دور فعال في شيوع أدب الرسائل وتعدد موضوعاته"².

إضافة لطبيعة الأندلس الساحرة ومفاتها المتعددة وبساتينها وأنهارها الجارية وحيواناتها الجميلة" أثر كبير في جذب أنصار الكتاب الأندلسيين كما جذبت أنصار الشعراء أيضاً، فأقبلوا عليها في شغف شديد يتغزلون بها، ويتغنون بمحاسنها ويصورون مقام فضائلها ومفاتها، فازدهرت بهذا رسائل وصف الطبيعة ومظاهرها المختلفة وتعددت ألوانها، وتشعبت أغراضها³.

¹ فايز عبد النبي القيسي، أدب الرسائل في الأندلس، المرجع السابق، ص 143.

² مرجع نفسه، ص 144.

³ مرجع نفسه ص 146.

ومهما يكن من أمر فقد تعددت مظاهر ازدهار أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري " ومن هذه المظاهر أنه شارك في التعبير عن حركة النقد الأدبي التي كانت في الأندلس آنذاك، فوضح كثيرا من آراء الأندلسيين في الشعر والشعراء المشاركة والأندلسيين وكتاباتهم وأساليبهم، فظهرت بذلك رسائل النقد الأدبي"¹.
لقد واكب أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري جميع مظاهر الحياة الأندلسية آنذاك، مما جعل له قيمة إنسانية حفظت له حياته وضمنت له بقاءه في المصادر التاريخية والأدبية.

وقد نبغ في هذا القرن عدد كبير من الكتاب البلغاء " ووضعت فيهم بعض المصنفات التي قسّمتمهم إلى طبقات بحسب مقدرتهم الكتابية وإجادتهم الفنية في تحرير الرسائل، ومن هذه المصنفات (كتاب طبقات الكتاب بالأندلس "الأفشتين").

كانوا يختارون كتاب الرسائل من أهل الأدب والثقافة، ومن ملكوا تقاليد البلاغة والفصاحة، واتصفوا بالملكة البيانية وغيرها من أدوات الكتابة"².

في ظل هذا المنحى يتبين لنا أن لهذه التطورات الجديدة في الأندلس دور كبير في شيوع أدب الرسائل وتطوره، حيث أدرك المجتمع أهمية أدب الرسائل وضرورة الاهتمام بالقيم الجمالية والفنية فيه باعتباره مرآة واقع الدولة ومستواها الحضاري.

ثالثا/ موضوعاتها وأغراضها:

يزخر النثر في الأندلس بالعديد من الرسائل التي تضمنتها بطون كتب الأدب الأندلسي، وهذه الرسائل يمكن تقسيمها حسب الموضوعات التي عالجتها منها الرسائل الإخوانية، الديوانية، الدينية، الوصفية... إلخ، ولكي

¹ بطرس البستاني، التوابع والزوابع، دار صادر، بيروت، د ط، 1980، ص39.

² فايز عبد النبي القيسي، أدب الرسائل في الأندلس، المرجع السابق، ص930.

تتضح الرؤية حول هذه الرسائل يتوجب علينا أن نسلط الضوء على كل نوع من هذه الرسائل حتى نقف على أهم ما جاء فيها.

1- الرسائل الإخوانية:

هي تلك الرسائل التي تصور عواطف الكتاب وانفعالاتهم ومشاعرهم الخاصة وقد اصطلحت كتب الأدب على تسميتها بالرسائل الإخوانية موضوعات هذا اللون من الرسائل كثيرة ومتعددة، جعلها "صبح الأعشى" في سبعة عشر نوعاً منها: التهاني، التعازي، العتاب، الشكوى، الاعتذار، الاستمناح والشكر، وما إلى ذلك من الموضوعات¹.

تشغل الرسائل الإخوانية جزءاً كبيراً ما انتهى إلينا من الرسائل الإخوانية في الأندلس، وقد عاجلت موضوعات مختلفة منها:

أ/ العتاب:

هي تلك الرسائل التي تدور حول عتاب الكاتب للمخاطب في أمر ساء منه أوجب عتابه له، وتباين صور العتاب بين اللين والرقّة والقسوة وذلك بحسب نفسية الكاتب وحالته، والغرض الذي استشاره ودبج رسالته فيه. وفيها تنتقى الكلمات بعناية لإحياء رسم الصداقة الذي تعرض لبعض الفتور، ويبدأ هذا النوع من الرسائل عادة بالحديث عن عهد الصداقة المنصرم وتذكر أيامه وملاذه².

¹ القلقشندي، صبح الأعشى، ج9، ص225، نقلاً عن فايز عبد النبي القيسي، أدب الرسائل في الأندلس، ص100.

² العربي سالم الشريف، دراسات في الأدب الأندلسي، دار شموع الثقافة للطباعة والنشر، د ب، ط1، د ت، ص223.

ب/ الإعتذار والإستعطاف:

يتمثل في تلك الرسائل التي تدور حول الاعتذار والاستعطاف، و"الاعتذار يكون عن أمر معين حدث مع الشخص، والاستعطاف في الصّح عن هذا الشخص، ويحتاج هذا النوع من الرسائل إلى حسن تأت لما تشتمل عليه من إيجاب حقوق الخدمة، ومن أسلافه ومن مرعى الخدم، وما يتبع هذا من التنصل والاعتذار الذي يسلب السخائم من القلوب وتنزل الأوغار من الصدور ويطلع الأنس، وقد غرب. كما ينبغي على الكاتب في هذه الرسائل أن يستعمل فيها فكره ويوفيهما حقها من جودة الترتيب واستفتاء المعاني، وأن يذهب إلى استعمال الألفاظ الجامعة لمعاني الغدر الملوحة بالبراءة مما قرن به"¹.

كما يعد الاعتذار آية من آيات الوفاء والصدقة والمودة بين المتراسلين وفي هذا اللون من الرسائل يعتذر الكاتب للمخاطب عن تقصير حدث منه، ويحاول التقرب منه واستدراار عطفه ومحبته وعفوه². وذلك أن يكتب الكاتب الرسالة التي كتبها للمخاطب ويطلب فيها العفو والمسامحة له ويستعطفه ويعتذر منه بطريقة سلسلة وبعبارات قوية يظهر فيها براءته من كل ذنب.

ج/ الإستمناح والطلب:

يعدان غرضان مهمان في الرسائل الإخوانية وهو نوع من الأنواع التي تنطوي تحت باب المدح، "يليه التوحد إلى الحكام والأمراء والترسل إليهم والتقرب منه في صدد طلب العطاء، فهو يصف خصال الممدوح الحميدة، وذلك في مجالستهم الدنو منهم لنيل رضاهم وكسب ثقتهم، فالمرسل يذكر خصال المرسل إليه الحميدة بمدحه ويعظمه، ويكون ذلك بمقابل يمنحه إياه الممدوح وهذا النوع نجد عند الشعراء كذلك،" فالمدح إذن هو

¹ أحمد بن علي القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج9، المرجع السابق، ص90.

² فايز عبد النبي القيسي، أدب الرسائل في الأندلس، المرجع السابق، ص102.

القلب العام الذي تصب فيه المعاني الأخرى التي يتوسط بها الكاتب لبلوغ أهدافه المنشودة سواء كانت من قبيل الاستعطاف أو الشفاعة أو الاستجداء"¹.

د / التهئة:

هي مجال واسع ويندرج تحت باب المدح وأضره كثيرة تصل إلى إحدى عشرة ضرباً منها: "التهئة بالزواج وبالأولاد وبالإبلال بالمرض، والتهئة بالقدوم من السفر والتهئة بالولايات... على حسب القلقشندي"².
شهد هذا النوع من الرسائل في العصر الأندلسي نشاطاً كبيراً على مستوى الدولة فكانت هناك رسائل توجه لمن ظفر بمنصب أو تمت توليته على قطاع ما أو تمت ترقيته، وذلك على مستوى العلاقات الاجتماعية من تهئة بمن رزق بمولود وتهئة المناسبات الاجتماعية، والعودة من البقاع المقدسة والنجاة من النكبات.

هـ / التعزية:

تعد التعزية نوع من التعبير عن المشاعر وعواطف الصداقة والتلاحم الاجتماعي، "وهي نوع من أنواع المراثي العربية التي تتغلب فيه على البكاء والحزن والتأبين وأنواعها تدور حول نبأ الوفاة، فتكون في تعزية الولد والأخ ووفاة زوج صديق"³، وهذا الحزن يؤثر بالغ التأثير في النفوس، وغالبا ما يكون في الخطاب الحامل لمعنى التعزية من خلال ذكر مناقب الميت وخصاله.

¹ علي بن محمد، النثر الأدبي الأندلسي في القرن الخامس، مضامينه وأشكاله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1990، ص274.

² القلقشندي، صبح الأعشى، ج05، المرجع السابق، ص05.

³ علي بن محمد، النثر الأدبي الأندلسي في القرن الخامس، مضامينه وأشكاله، المرجع السابق، ص05.

و/ الشفاعة والوصايا:

هي تلك الرسائل التي تكتب إلى الرؤساء والوجهاء في حق الكتاب والشعراء والقواد وغيرهم من مختلف الطبقات والأصناف "يدعونهم فيها إلى معاونتهم ومساعدتهم والأخذ بيدهم، لقد استخدم كثير من الكتاب المشهورين مكانتهم وقدرهم وأقلامهم، لإعانة ذوي الحاجات على قضاء حاجاتهم، فكثرت الوصايا والشفاعات التي كانوا يوجهونها إلى الأمراء والوزراء وغيرهم"¹.

ومن الملاحظ أن هذه الرسائل غالباً ما كانت "تبدأ بمقدمة في مدح الإخاء والمودة ثم الإشارة إلى الاحترام المتبادل والصلات القوية التي تربط بين الكاتب والمخاطب، والانتقال بعد ذلك إلى موضوع الشفاعة أو التوصية وتختتم الرسالة بتوجيه الحمد والشكر إلى المخاطب"².

وهذا دليل على أن هذه الرسائل جاءت مواضعها مختلفة في مقدماتها وعرضها وخاتمتها، فهي حصال حميدة تدور بين الكاتب والمخاطب ويدل هذا على صدق العاطفة فيها، وعلى طابع المودة والمحبة بينهم.

ومن أمثلة الرسائل الإخوانية نجد رسالة الاعتذار التي كتبها "الفقيه أبو إبراهيم" رداً على رسالة العتاب التي كتبها "الحكيم بن عبد الرحمان الناصر" وفيها يقول: "قرأت أبقه الله الأمير سيدي هذا الكتاب وفهمته ولم يكن توقيفي لنفسي إنما كان لأمر المؤمنين سيدنا أبقى الله سلطانه"³.

فهو إذن يعبر عن اعتذاره ويلتمس من سيرة الخليفة عبد الرحمان الناصر وأجداد من قبل موقفه من الفقهاء والعلماء، مبرراً لتخلفه عن حضور الحفل الذي دعاه إليه فيقول "العلمي بمذهبه وللسكون إلى تقواه ولاقتفائه لأثر سلفه الطيب رضوان الله عليهم فإنهم يسبقون من هذه الطبقة لا يمثلونها بما يشتهيها ولا بما يقضي

¹ فايز عبد النبي القيسي، أدب الرسائل في الأندلس، المرجع السابق، ص 298.

² مرجع نفسه، ص 298.

³ مرجع نفسه، ص 283.

منها ويترك إلى تناقضها فيسعدون بها لدينهم ويتزينون بها عند رعاياهم ومن يفد عليهم من قصائدهم، فلهذا تختلف ولعلمي بمذهبه توقفت"¹.

مما سبق ذكره اتضح لنا أن الرسائل الإخوانية استطاعت أن تتناول جانبا كبيرا من العلاقات الاجتماعية التي تربط بين أفراد المجتمع الأندلسي والتي غالبا ما تقوم على المودة والحب والصدق والوفاء، مما يعد جانبا مشرقا في حياة المجتمع الأندلسي، وفي موضوعات المهجاء والذم والاعتذار التي تعبر عن الجانب السلبي في العلاقات الاجتماعية وهو أمر طبيعي كائن في كل مجتمع.

2- الرسائل الديوانية:

نظرا لأن وظيفة الكتابة في الدواوين كانت من الوظائف المهمة في الدولة فقد تطلع كثير من الكتاب إلى العمل فيها، وكان الديوان مدرسة يتلقى فيها الكتاب عن انضمامهم إليها تدريبات كثيرة لكي يتقنوا الكتابة الديوانية إتقاناً تاماً.

"كان الخلفاء والولاة يختارون لدواوينهم كتاباً مبرزين يحسنون تصريف في حنكة واقتدار، ولديهم ثقافة واسعة في ميدان الثقافة العامة ومعرفة تامة في طرائق الكتابة وأساليبها، فكانت الكتابة في الديوان منزلة رفيعة يحرص الكتاب على تثقيف أنفسهم وتجويد كتاباتهم ليحضوا بها"².

الرسائل الديوانية تصدر عن ديوان الخليفة أو الملك لتصريف أعمال الدولة وما يتصل بها من تولية الولاة والعمال وقادة الجيوش وقد توجه إلى الأعداء على سبيل التهديد والوعيد، ومن الكتاب في هذا النوع "لسان

¹ فايز عبد النبي القيسي، أدب الرسائل في الأندلس، المرجع السابق، ص 283.

² محمود عبد الرحمان صالح، فنون النشر في الأدب العباسي، دار جرير للنشر والتوزيع، عمان، ط2، 1426هـ-2006م، ص 82.

الدين ابن الخطيب¹ أي هي مرتبطة بالأمر السياسي المتعلقة بدواوين الخلفاء والمتعلقة كذلك بالأعداد، وقد اعتنى عبد الرحمان الداخل منذ عهد مبكر بديوان الرسائل².

فهي إذن رسائل تصدر عن ديوان الرسائل وتكون موضوعاتها متنوعة فهي تشمل الرسائل التي تصدر مشتملة على تولية العهد والقضاء والقضاة والولاة، وما يتصل بأمر الرعية وتشمل الرسائل التي تكتب عن الخليفة أو الملك أو الوزير إلى من هو مثله من أجل التهئة أو البشارة أو المعاتبة أو التعزية وما شابه ذلك.

وأيضاً هي تلك الرسائل التي تعالج شؤون الإدارة والتنظيم الداخلي الذي يتعلق بالحياة العامة وشؤون الرعية، "ولاسيما أن الرعية من السلطان بمكان الأشباح من الأرواح صلاحها وفسادها متصلان وناؤهما ونقصانها منتظمان، إذ كانت الرعية عنصر المال ومادة الجباية بها قوام الملك وعز السلطان ورزق الأجناد التي بها يقاتل العدو وينصر الدين وتحمى الحروب"³.

والرسائل الديوانية متعددة الأغراض من أهم ألوانها: رسائل التوقيعات ورسائل العهود، إضافة إلى رسائل التولية والتعيين، ورسائل التوجيهات والوصايا والأوامر الإدارية المختلفة إلى جانب التبصير بشؤون التنظيم الداخلي... إلخ.

أ/ التوقيعات:

"التوقيع هو تعقيب موجز كان يكتبه الخلفاء الراشدون عن الرسائل الواردة إليهم من أفراد المسلمين أو من ولاية البلدان يرد فيه الخليفة بما يراه مناسباً، وكانت توقيعات الخلفاء الراشدين تتصف بالبلاغة ووجازة التعبير ودقته"⁴.

¹ سامي يوسف أبو زيد، الأدب الأندلسي، المرجع السابق، ص 303.

² عمر ابراهيم توفيق، الوافي في تاريخ الأدب العربي موضوعاته وفنونه، دار غيداء للنشر والتوزيع، العراق، ط 1، 1433هـ-2012م، ص 170.

³ ابن بسام الأندلسي، الذخيرة، ص 120، ص 121.

⁴ محمود عبد الرحمان صالح، فنون النثر في الأدب العباسي، المرجع السابق، ص 92.

أضف إلى ذلك أنه كان الذين يقومون بالتوقيع "هم كبار رجال الدولة من الخلفاء والوزراء والقواد وكتاب الدواوين، وكانوا يعتمدون في توقيعاتهم على جودة الإنشاء وحسن صياغة التركيب بعبارة موجزة بليغة، وقد يعتمدون على حسن الاختيار، فيختارون آية كريمة أو حديثاً شريفاً أو مثلاً مشهوراً أو بيتاً من الشعر، إن وجدوا أن أياً من ذلك كله مناسباً للتوقيع به"¹.

وهذا يعني أن التوقيعات هي تلك التعليقات التي كان يرد بها أمراء الأندلس على بعض الرسائل والشكاوي التي كانت ترفع إليهم فقد مالوا فيها إلى الإيجاز والبساطة في التعبير والابتعاد عن التعقيد والتكلف.

ب/ العهد:

العهد رسالة ديوانية يدبجها كاتب الرسائل على لسان الخليفة لمن اختاره لولاية الخلافة من بعده وتعرف حينئذ بعهد الولاية وتكتب أحياناً على لسان الخليفة أو الأمير بالأمان لثأر أو لخارج على، أو لدولة مجاورة زادت أسباب الخلاف معها وتعرف حينئذ "بعهد الأمان".

وكان الكتاب وهم يكتبون مثل هذه العهود ينتهجون أسلوباً خاصاً ويتقنون معاني تتماشى مع طبيعة هدف العهد المتميز عن غيره من الرسائل الديوانية، فقد كان الكاتب يبدأ بالنص على العهد، كما تقدم، ثم يتدرج إلى بيان الصفات الكريمة والمناقب العظيمة التي تجمعت في ولي العهد، فاستحق بها ولاية العهد"².

¹ محمود عبد الرحمان صالح، فنون النثر في الأدب العباسي، المرجع السابق، ص 93.

² ابن بسام الأندلسي، الذخيرة، المرجع السابق، ص 549.

ج/ التولية والتعيين:

التولية والتعيين من الرسائل المهمة التي استوعبت جوانب خطيرة في إدارة شؤون الرعية وتنظيم مواقفها الاقتصادية والاجتماعية والدينية المختلفة¹.

ومن بواكير رسائل التولية والتعيين ما كتبه "عقبة بن حجاج السلوي" إلى مهدي بن مسلم مؤلفه القضاء في قرطبة وذلك في عهد الولاة في الأندلس إذ كتب إليه يقول: "وهذا ما عهد به عقبة بن الحجاج إلى مهدي بن مسلم حين ولاه القضاء، عهد إليه بتقوى الله وإيثار طاعته واتباع مراداته في سره وعلايته، ثم بين له الأحكام والقواعد العامة التي يجب أن يستقي منها أصول التشريع ويسير في ضوئها القضاء في مجلس الحكم وأمره أن يتخذ كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم إماما يهتدى بنورها يعيشوا إليهما وسراجا يستضيء بهما، فإنّ به ما هدى من كل ضلالة"².

نلمس من هذا أنه لم يختره لمنصب القضاء إلا لفضل القضاء عند الله جل جلاله لما فيه من حياة، وإقامة حقوق المسلمين، وإجراء الحدود مجاريها على من وجبت عليه، وإعطاء الحقوق من وجبت له، إضافة إلى أنه أسدى إليه عددا من النصائح، وأوضح له كثيرا من الأمور التي يجب أن يلتزم بها في مجلس القضاء من شمائل وصفات تكفل تحقيق العدل، حيث اتسمت هذه الرسالة بشيوع الوصايا والأوامر المختلفة.

3- الرسائل الدينية:

نستطيع أن نصنف الموضوعات التي تناولتها الرسائل الدينية إلى ثلاثة أصناف هي:

التسبيحات والتحميدات، الشوق والوجد الديني، والوعظ والإرشاد، والدعوة إلى الزهد.

¹ فايز عبد النبي القيسي، أداب الرسائل في الأندلس، المرجع السابق، ص113.

² مرجع نفسه، ص120.

أ/ التحميدات والتسيبحات:

يقصد برسائل التّحميدات والتسيبحات "تلك الرسائل التي تقوم على تمجيد الله عز وجل وتقديسه وتعظيم الذات الإلهية وتنزيلها، ولم ينته إلينا من هذا اللون من الرسائل إلا عدد من الفصول التي كتبها "ابن برد الأصغر" وأوردها "ابن بسام" تحت عنوان (فصول له في التحميدات)¹.

نلاحظ أن هذا اللون من الرسائل يعالج عددا من الأمور التي تتعلق بقوة الله عز وجل وقدرته المطلقة في تصريف شؤون الكون المختلفة.

ومن هذه الرسائل ما يشير إلى قدرة الله في التصرف في الكون ومن سمات هذه القدرة ودلالاتها إجلاء الكروب وتفريج الهموم والمصائب وإقالة العثرات وإبدال النعم بعد النقم والراحة بعد الجهد يقول "ابن برد": "الحمد لله حالي الكرب السود، وفاتح المبهم المسدود الذي أقال العثرات، وأدال من الحسرات وانتاش من البأساء وأعقب بالنعماء، وأراح من جهد البلاء"².

ب/ الشوق والوجد الديني:

لقد أثار الوجد والشوق الديني إلى زيارة الأماكن المقدسة لونا طريفا من ألوان أدب الرسائل في الأندلس، "كما كانت بعض هذه الرسائل تصوّر نفسية أولئك الكتاب الذين لم تسعفهم الظروف لزيارة الحرم المكي والقبر

¹ ابن بسام الأندلسي، الذخيرة، المرجع السابق، ص 491.

² المرجع نفسه، ص 492.

النَّبوي، وتصف ما يكابدونه من شوق وحنين إلى تحقيق هذه الأمنية العزيزة التي حرمت منها نفوسهم، وكانوا يكتبون بها إلى الرسول صلى الله عليه وسلم مع أولئك الذين شدوا الرحل إلى قبره الطاهر"¹.

ومهما يكن من أمر فإن هذا اللون من الرسائل "يكشف عن التدين العميق الكامن في نفوس الأندلسيين وتطلعهم الصادق إلى تأدية فرض من جوانب عبادة الله تعالى وتشوقهم إلى زيارة قبر الرسول الكريم، كما تكشف عن المصاعب والمخاطر التي تكتنف رحلة الحج والتي تجعل من تأدية هذه الفريضة أمرا صعبا عزيز المنال مما يدفع بعض الكتاب إلى التعويض عن الرحلة بكتابة رسائل مطولة وإرسالها إلى مقام الرسول الكريم مع حجاج بيت الله"².

لعل السبب الرئيسي الذي أدى إلى ظهور هذا اللون من الرسائل هو الظروف الصعبة التي مرت بها الأندلس هذه الفترة، حيث اتخذ الكتاب الأندلسيين من ذكر مناقب الرسول الكريم ومعجزاته والتشوق إليه، وسيلة لطلب النجدة والاستشفاع به ليخلصهم الله من المحن والمصائب التي حلت بهم.

ج/ الزهد والوعظ:

شاع الزهد في الأندلس بين مختلف الطبقات الاجتماعية، وكان صادرا في جملته عن روح الإسلام الذي يبحث على اتخاذ العبرة والعظة والتفكير في الماضي والحاضر والوقوف عند الأحداث وسلوك طريق الرشاد والتمسك بأهداب الدين والابتعاد عن مناهيه ونبذ حياة اللهو والترف.

لقد استوعب أدب الرسائل هذا الجانب المهم في الحياة، "حيث أخذ عدد من الأندلسيين المشهورين والمعروفين بالصلاح والزهد بالمناداة بالابتعاد عن ترف الحياة وملذاتها، وجعلوا رسائلهم وسيلة لنقد المجتمع،

¹ أحمد بن محمد المقرئ التلمساني، أزهار الرياض في أخبار عياض، ج4، تحقيق سعيد أحمد أعراب، طبعته تحت إشراف اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي، د.ب، د.س، ص21.

² فايز عبد النبي القيسي، أدب الرسائل في الأندلس، المرجع السابق، ص197.

وللمطالبة بإصلاحه الاجتماعي في النصح والوعظ والإرشاد، وكان ذلك يظهر أحيانا في رسائل مستقلة أفردوها لهذا الغرض وحده"¹.

ضف إلى ذلك أنه كان بعض الكتاب يضمّنون رسائلهم في التعزية ووصف الحن والمصائب والشكوى ودعوتهم إلى الزهد في الحياة ويقدمون المواعظ والحكم للناس، ودليل هذا الكلام أنه جاء ترغيبا في الزهد وحثًا على الابتعاد عن ملذات الدنيا ومباهجها فهي سراب زائل.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى نجد أن الرسائل الدينية تنقسم أيضا إلى قسمين أولهما: الرسائل التي ترسل إلى ضريح الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، وثانيهما التي ترسل إلى أضرحة الأولياء والصالحين.

إذ تعد هذه الرسائل النبوية نموذجا للتعبير عن القلق الذي يساور المسلمين على مصيرهم المجهول في بلاد المغرب عامة، والأندلس خاصة، إذ كانوا أكثر استعماهم لها لبعدهم ديارهم ونزوح أقطابهم.

4- الرسائل الفكرية:

تنقسم حسب غاياتها إلى ثلاث:

أ/ رسائل فكرية:

موضوعها يكون فكريا محاكمة الأشياء أو التأمل في بعض المشكلات دون الالتفات الكبير إلى أسلوب بياني معيّن من هذا النوع رسائل "ابن باجة الفلسفية".

¹ إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين)، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 1997، ص502.

ب/ رسائل مختصة بالكتابات العلمية ذات الصبغة العلمية والأدبية:

يقوم بما الكتاب الأندلسيين وبعض من صفوة العلماء "بتسجيل مفاخرات وطنهم ملتجئين لها الأسباب واغتنامهم للمناسبات التي اتخذوا منها ذريعة للإشادة بوطنهم من حيث السحر والجمال وبمواطنه علما وشعرا وأدبا، ومن أشهر الكتاب في هذا الشأن "أبو محمد علي بن أحمد بن حزم الأندلسي" و"إسماعيل بن محمد الشقندي"¹.

إلا أن هذا النوع من الرسائل كان "ينزع إلى منزعين ويتحلى بصفتين منزع الصناعة وصفة التألق، حيث يجد الكاتب أن طبيعة الموضوع بطرقه تساعده على ذلك منزع البساطة، وصفة الاسترسال حيث يعتمد الكاتب إلى تسجيل قضايا وتحليل المجتمع وذكر مزايا وترديد الأخبار فكانت رسالة واحدة والأمر كذلك، إذ تجمع بين الأسلوبين الأدبي المصنّع والعلمي المرسل"².

يتحلى لنا من خلال هذا النوع من الكتابة أنّها تتركز على الصنعة فهي مرتبطة بالبيان وقوة توظيفه، فالبساطة هنا مرتبطة بالوضوح والاسترسال، فهو مزيج بين الأدبي والعلمي خاصة أنه نوع دقيق يحمل منزع الصنعة مع صفة التألق، فعلى الكاتب احترام هاتين الصفتين وهذين المنزعين، فهذه الكتابة مأخوذة من التأليف المشرقية.

ج/ رسائل لإظهار البيان:

"وفيه تبرز إظهار البراعة الأسلوبية أو قل أن الاستقلال بالأسلوب فيه واضح المعاني"³.

¹ مصطفى الشكعة، الأدب الأندلسي وموضوعاته وفنونه، دار العلم للملايين، لبنان، ط10، 2000، ص231.

² إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين)، ج2، المرجع السابق، ص635، 636.

³ مرجع نفسه، ص231.

تصنف هذه الرسائل وفق الغاية التي كتبت لها سواء كانت فكرية أو بيانية إلا أن الفرق بينهما هو التركيز الأكبر على البيان أو إهماله.

4- الرسائل الحربية:

يعد وصف المعارك وذكر تفاصيلها من الموضوعات المهمة التي عالجها أدب الرسائل في الأندلس، لأن الحياة في الأندلس كان جلّها صراعات سواء صراعات داخلية أو خارجية، فقد كثرت الرسائل التي تصف المعارك وسيّرها وما تحفل به تلك المعارك من بطولات وتضحيات، وما ينتج عنها من انتصارات وانكسارات، وكانت هذه الرسائل تهتم بأدق تفاصيل المعارك من إعداد الجند والآلات الحربية.

إذ نرى أن هذه الأمور الحربية المختلفة من مواضيع الرسائل الديوانية.

حيث يقصد بهذا اللون من الرسائل تلك التي تتحدث عن المعارك والغزوات والتي تقوم على البشارة بفتح والإخبار به، أو التي تقوم على الاستنجد والاستغاثة وأهم ما تستند إليه هذه الرسائل التركيز العاطفي والطابع الديني بسبب طبيعة الصراع آنذاك بين الأندلس والممالك النصرانية المجاورة.

لدى فإن " لسان الدين " يكثر من الإشارة إلى الموازنة بين الحج والجهاد وما يتماثلان به مثل ما كتب به إلى أمير المدينة المقدسة يخبره بمجموعة من الفتوحات: "فإن الجهاد والحج أخوان يرتضعان ثدي المناسبة، يكادان يتكافآن في محاسبة سفرا وزادا ونية واستعدادا وإتلافا لمصون المال، وإنفاذا وخروجاً إلى الله لا يؤثر أهلا ولا ولدا ويفترقان محلا ويجتمعان جهادا ويركعان للملة منارا ساميا وعمادا"¹.

¹ القلقشندي، صبح الأعشى، المرجع السابق، ص 50-51.

"غطت رسائل "لسان الدين" الحربية الكثير من الوقائع والمعارك الحربية التي دارت بين المسلمين والنصارى والحملات العسكرية التي قام بها المسلمون هناك لاسيما التي كان لهم الغلبة والظهور فيها، فهي تعد وثائق تاريخية لتلك الأحداث تكتسب أهميتها من خلال المشاركة الفعلية التي يقوم بها لسان الدين في هذه الأحداث"¹.

لعل اللافت للنظر في هذه الرسائل أنها لم تكن مقصورة على الأدباء والكتاب فقط وإنما كتب كثيرا من هذه الرسائل القواد والأمرء، وذلك لقدرتهم على وصف سير المعارك وصفا دقيقا قد يعجز عنه الأدباء، وذلك لفارق الخبرة بين الطائفتين في هذه الناحية.

5- الرسائل الوصفية:

تبعث هذه الرسائل عادة ما تكون مقترنة بتلك الفتوحات العسكرية والانتصارات العظيمة التي حققتها الجيوش الأندلسية، وتقدم وصف للمعركة والجيوش وشجاعة القادة والجنود فيها، كما تقدم وصف للمدن والحصون من مناعة الأسوار وقوة الدفاع عنها.

ومن الأمثلة على هذا النوع من الرسائل "رسالة كتبها "ابن الخطيب" عن سلطانه "ابن الأحمر" إلى عجلان سلطان مكة شرفها الله تعالى وعظمتها، يخبره فيها فتحهم للعديد من المدن والحصون في الأندلس، ثم يقدم وصف لكل مدينة وحصن من مناعة الأسوار وكثرة الجموع فيها وخيرات هذه المدن والحصون التي أصبحت في يد المسلمين، فتسفك دماء الأعداء"²، يقول: "...فإننا كتبناه إليكم - كتب الله لكم عناية تحجب الأسواء بجننها الساترة ورعاية تجمع الأهواء المختلفة والقلوب المتنافرة، من حمراء غرناطة دار الملك الإسلامي بالأندلس -

¹ عبد الحليم حسين الهروط، النشر الفني عند لسان الدين ابن الخطيب، دار جرير للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 1426هـ، 2006م، ص51.

² القلقشندي، صبح الأعشى، ج7، المرجع السابق، ص49.

حرسها الله ووفر جموع حاميتها المتنافرة... ولا زالت سحائب رحمة الله الحائطة بها الغمرة تظل جموع جهادها الظافرة، وتجوّد رمم شهدائها الناخرة ونعم الله تحط ركائب المزيد في نواديها الحامدة الشاكرة...¹.

من جل هذا تبين لنا أن لسان الدين تحدث في هذه الرسالة عن أهمية الجهاد في الأندلس وكيفية تعليم الأطفال على الجهاد وتعلم القرآن وشرح وضع الإسلام في تلك البلاد.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى يعد الوصف من أهم الموضوعات التي عالجها أدب الرسائل في الأندلس، "فلم يكن فنا أدبيا مستقلا فحسب، بل كان عماد أكثر موضوعات أدب الرسائل من سياسية واجتماعية، وصراع مع الصليبيين، وشوق ديني... ولهذا لا يعدوالباحث الحقيقية إن قال إن أدب الرسائل-إلا أقله- راجع إلى باب الوصف"².

فقد احتوت الرسائل الوصفية على بعض الرسائل المستقلة التي تعالج الوصف دون غيره، كرسائل وصف الطبيعة (من طبيعة صامته وطبيعة صائتة حية) والطرديات والرحلات... وما إلى ذلك.

سنقف على وصف "الرحلات" مثلا: فلقد تحدث الكتّاب الأندلسيون عن الرحلات التي قاموا بها في بلاد الأندلس وتعرّضوا لوصف ما رأوه من مظاهر الحياة الاجتماعية المختلفة، كما قدّموا وصفا دقيقا للمناظر الطبيعية التي شاهدها، وصوّروا أيضا انطباعاتهم النفسية عن هذه الرحلات.

ومن أشهر الرسائل التي جاءت في وصف الرحلات: رسالة "الأبي عبد الله بن مسلم" سماها (طي المراحل) وخاطب بها أغلب "صاحب ميورقة"، وهي قصة تطواف ينتقل فيها الكاتب من مدينة إلى مدينة، ومن حوزة أمير إلى حوزة أمير آخر ويبدو أنه كان رسولا إلى بعض ملوك الطوائف عن إقبال الدولة بن مجاهد "العامري" حين

¹ عبد الحليم حسين الهروط، النثر الفني عند لسان الدين ابن الخطيب، المرجع السابق، ص 50.

² فايز عبد النبي القيسي، أدب الرسائل في الأندلس، المرجع السابق، ص 244.

نازعه "المقتدر بن هود" أحد الحصون، يقول: "فجئنا فلانة وقد سدّ بابها ونام بوابها والسييل قد طمى، يحمل غثاء أحوى، فلم تشك القلوب، أن نفوسنا ذائقة الموت، حتى بلغت النفوس التراقي والتفت الساق بالساق وقيل من راق وأشعر صاحب الحصن بمكاني، وقصّ عليه شأني، فأمر بفتح باب المدينة وآواني إلى دار حصينة"¹.

فالمواضح من هذا أنه وصف ما لقيه من أهوال، وعبر عن الحالة النفسية التي كان يعاني منها قبل أن يفتح له باب هذه المدينة.

وعليه يعتبر هذا اللون من الرسائل إلى جانب قيمته الأدبية، مادة وفيرة يسجل مختلف مظاهر الحياة الاجتماعية والحضارية والسياسية والطبيعية، التي يشاهدها أو يسجلها الكاتب خلال رحلته.

رابعاً/ أهم خصائصها الفنية:

بعدما تطرقنا لموضوعات وأغراض الرسالة الأدبية في الأندلس نتوصل إلى أن الرسالة في الأدب الأندلسي قد تميزت بمجموعة من الخصائص تتظافر جميعاً من أجل الوصول إلى تفرّد الرسالة الأدبية عن سواها.

ومن بين هذه الخصائص والسمات ما يلي:

1- البدء والعرض والختام:

لم يحفل الكتاب الأندلسيون احتفال المشاركة بمطالع الرسائل وخواتمها، ولهذا اتخذت رسائلهم في بنائها شكلاً فنياً جديداً، يختلف في بعض جزئياته عما ألفناه في رسائل المشرقية "التي تبدأ في الغالب بالبسملة والتحميد والصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم فصارت رسائلهم على اختلاف موضوعاتها وأغراضها تخلو من الاستفتاح المعروف في الغالب، وتبدأ بالدعاء للمرسل إليه أو بالمنظوم أو بالدخول في الموضوع مباشرة أو بتمهيد

¹ ابن بسام الأندلسي، الذخيرة، المرجع السابق، ص430.

يتفاوت بين الإسهاب والتطويل والإيجاز والاختصار، تبعاً لتنوع مقامات المرسل إليه واستخدام الألقاب التي تتناسب وما يكتبه إليه أميراً أو وزيراً أو صديقاً¹، وسنقف عند كل واحدة منهما باختصار.

• المقدمة والإستهلال:

إن الرسائل "أساليب تفتتح وتختتم، فلا بد من مراعاة الافتتاح بالبسملة والحمدلة، أي التحميد والتشهير والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم والسلام عليه، لفضة-أما بعد-، والأدعية تتوسط صدور الرسائل أو تبتدئ بها ويراعي فيها منزلة المكتوب إليه"².

ومن الأمثلة عن هذا: "أطال الله بقاء الوزير الجليل الأجدد الأوحى أعلى مرتقاه في العز"³.

الغرض/الموضوع:

يعتبر الغرض لب الرسالة وجوهرها وهو الهدف الأساسي الذي تنطلق منه الرسالة، فقد تنوعت المضامين والأغراض في الرسائل بأنواعها، "حيث كتب كتاب الدواوين في المبايعات والعهود والمواثيق وبمناسبة نصر الجيش...، وما إلى ذلك من الموضوعات المتعلقة بالدولة وفي الإخوانيات يتبادل الأصدقاء الرسائل، ويترقون إلى الشوق والاعتذار والتهنئة والتعزية والشكوى... إلخ"⁴.

¹ الجاحظ، البيان والتبيين، ج2، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة، ط7، 1418هـ-1997م، ص6، نقلاً عن فايز عبد النبي القيسي، أدب الرسائل في الأندلس، ص315.

² محمد يونس عبد العالي، في النثر العربي قضايا وفنون ونصوص، الشركة المصرية للنشر، مصر، ط1، 1996، ص164.

³ ابن بسام الأندلسي، الذخيرة، المرجع السابق، ص277.

⁴ أحمد الهاشمي، جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، المرجع السابق، ص46.

● الخاتمة:

تعتبر الخاتمة آخر شيء في الرسالة، "وتكون في الغالب بلفظ السلام أو بتعبير "برحمة الله وبركاته"، وتكون مسبوقة بالدعاء، كما تشمل كثير من الرسائل على التاريخ المتمثل في اليوم والشهر والسنة"¹.

مما تجدر الإشارة إليه أن الرسائل لا تخلوا من مقدمات الاستفتاح من بسملة والصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم، كما أنّ الغرض أو الموضوع والذي هو جوهر الرسالة ومضمونها وأن تحتتم الرسائل بالدعاء للمرسل إليه والسلام عليه.

2- الاقتباس والتضمين:

لقد حرص الكتاب الأندلسيون على الاقتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف، كما حرصوا على تضمين رسائلهم الأخبار والأمثال والحكم إلى غير ذلك. فقد كان القرآن الكريم والحديث الشريف أثر كبير في أساليبهم فهما مثال البيان والفصاحة لدى الكتاب عامة.

شملت ظاهرة الاقتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف معظم موضوعات أدب الرسائل وأغراضه، "إذ لم يقتصر الأثر على الرسائل الدينية وغيرها من الرسائل ذات الطابع الديني، كرسائل الجهاد والصراع مع الصليبيين، بل تعدى ذلك إلى موضوعات الرسائل ذات الاتجاه السياسي وموضوعات الرسائل ذات الاتجاه الاجتماعي، والمفاخرة بين السيف والقلم والرسائل الوصفية والإخوانية والديوانية، إلى جانب موضوعات الهجاء والفكاهة"².

كان اقتباسهم من القرآن الكريم والحديث الشريف على وجهين: أولهما إيراد الآيات والأحاديث الشريفة بصيغتها ولفظها، وثانيهما إيرادها دون النص عليها بصيغتها، ويبدو "الوجه الأول" أكثر وضوحاً ووجوداً في

¹ الطاهر توّات، أدب الرسائل في المغرب العربي، ج2، المرجع السابق، ص111.

² فايز عبد النبي القيسي، أدب الرسائل في الأندلس، المرجع السابق، ص327.

رسائل الشوق والوجد الديني وفي رسائل الزهد والوعظ، وفي موضوع الخصومات والاضطرابات السياسية ورسائل الصراع والجهاد بين الصليبيين مثل قوله تعالى: " { فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ } وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ } [البقرة : 251]" ، أما الوجه الثاني للإقتباس من القرآن والحديث الشريف فيقوم على اقتباس معاني القرآن والحديث وإيرادها ضمن نصوص الرسائل، ويظهر ذلك بوضوح في مختلف موضوعات الرسائل الدينية. ومن الأمثلة عن ذلك: قول "أبي الخصال" في رسالة كتبها إلى المقام النبوي والحجرة الشريفة وقد أورد فيها كثير من الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث الشريفة من معانيها دون لفظها، كقول: "إلى الرؤوف الرحيم، الرسول الكريم خطيب الأنبياء وإمامه في اليوم المشهود، الذي ليس على الغيب بضنين... الذي جعلت له الأرض مسجداً وطهوراً وأنزل عليه القرآن هدىً ونوراً"¹.

والجدير بالذكر أن النثر العربي في الأندلس قد استوعب ظاهرة الاقتباس والتضمين التي تعدّ سمة أصيلة في النثر العربي في مختلف مراحلها، فهي تدل على سعة ثقافة الكتاب الأندلسيين ولا غرو في ذلك أن أغلبهم كانوا من الفقهاء والعلماء.

3- الإيجاز والإطناب:

لم تكن نصوص أدب الرسائل على مستوى واحد من حيث الإيجاز والإطناب، فهي تقصر وتطول حسب موضوع الرسالة والظرف الذي كتبت فيه وعاطفة المرسل، وعلى الرغم من ذلك فإنّ سمة الإطناب تظهر في معظم موضوعات الرسائل وأغراضها في الأندلس.

¹ أحمد بن محمد المقرئ التلمساني، أزهار الرياض، ج4، المرجع السابق، ص21-22.

لعل ميل الكتّاب الأندلسيين " إلى السهولة والوضوح والابتعاد عن التعقيد وحرصهم على التنوع بين الشعر والنثر والاقتناس من القرآن الكريم والحديث الشريف وتضمين رسائلهم الأمثال والحكم قد دفعهم إلى الإسهاب والإطناب، لأن عناصر هذا التصريح تتطلب التمهيد لها بما يناسبها من المعاني المنتورة، كما تتطلب التعليق المناسب عليها"¹.

- كذلك تظهر سمة الإطناب في بعض موضوعات الرسائل الاجتماعية، كوصف الترف والمجون والشكوى من الزمان وفساد الأحوال، ومثال ذلك: قول "أبي فضل البгдаوي" "وكنت مررت ببلاد... نبعث بين أهلها عيون الخيانة والبهتان وضعف حبل الديانة فيهم والإيمان فجنحوا إلى جحود النعم والكفران وتوسّعوا في مطاوعة القلم والعدوان..."².

فهو يريد أن يصوّر فساد الأحوال واختلال الأمور في بعض جوانب المجتمع الأندلسي فساق المعنى مكرّرا بعبارات مختلفة.

في حين نجد الإيجاز تظهر سمته في كثير من موضوعات النقد الاجتماعي ورسائل الزهد والوعظ والتحميدات والتسيبحات، وفي عدد من الرسائل الوصفية... إلخ.

وقد تكون بعض الرسائل موجزة لا تتعدى بضع كلمات ومثال ذلك بيت الشعر لأبي الطيّب المتنبي:

وَلَا كُتِبَ إِلَّا الْمَشْرِقِيَّةُ وَالْقَنَا
وَلَا رُسُلٌ إِلَّا الْخَمِيسَ الْعَرْمَرُمُ³.

¹ فايز عبد النبي القيسي، أدب الرسائل في الأندلس، المرجع السابق، ص333.

² ابن بسام الأندلسي، الذخيرة، ص411، نقلا عن فايز عبد النبي القيسي أدب الرسائل في الأندلس، المرجع السابق، ص334.

³ أحمد بن حسين المتنبي أبو الطيّب، شرح ديوان المتنبي، ج4، دار بيروت للطباعة والنشر، ط1، 1900 م، ص70.

وفقا لهذا الأمر فإن الكتّاب الأندلسيين كانوا يراعون ظروف إنشاء الرسائل ومناسبة الإطناب والإيجاز فيها لمقتضى الحال.

4- سهولة الألفاظ وجزالتها:

لقد كان الطابع العام والسمة الغالبة على ألفاظ أدب الرسائل في الأندلس، السهولة والوضوح والابتعاد عن التعقيد والغرابة والوحشية وغيرها من الصفات التي تخل بفصاحة الكلمة مما تعارف عليه أهل البلاغة. ومما تجدر الإشارة إليه أن الكتّاب الأندلسيون "استعملوا من ألفاظ المشاركة وتراكيبهم في التعبير عن موضوعات أدب الرسائل وأغراضه ما يناسب حياتهم وحاجاتهم النفسية والعاطفية والفكرية، فاختلقت الألفاظ الوحشية والغريبة التي كان يستخدمها الكتّاب المشاركة لأنها لم تعد تناسب المجتمع الأندلسي وذوقه الأدبي"¹. كما نجدهم في بعض رسائلهم وظفوا الألفاظ العامية.

حيث نجد أغلب موضوعات الرسائل الإخوانية من مديح ومودة وعتاب، والاعتذار والتهنئة، والشكوى والرتاء والتعازي والشفاعات والوصايا... إلخ، تتسم بالسهولة والوضوح والابتعاد عن صعب الألفاظ وغريبها. ومن الأمثلة عن ذلك قول: "الأعمى التُّطيلي" في رسالة كتبها إلى "أبي الحسن بن بياع": "يا عمادي الذي شقّ قدره على الأقدار شغوف الضحى على الإبدار وسرى ذكره بأطيب الأخبار مسرى النسيم بالأزهار وامتزج حمده وشكره بالأسماع والأبصار..."².

نلاحظ أن ألفاظ هذه الرسالة كألفاظ غيرها من الرسائل الإخوانية جاءت واضحة معبرة عن العواطف الصادقة والمشاعر المخلصة التي تربط بين الإخوان والأصدقاء.

¹ فايز عبد النبي القيسي، أدب الرسائل في الأندلس، المرجع السابق، ص 339.

² ابن بسام الأندلسي، الذخيرة، المرجع السابق، ص 730.

كذلك نجد من الخصائص:

• إيجاز اللفظ: "وهو عملية وضع المعاني الكثيرة في ألفاظ أقل وافية بالغرض

المقصود مع الإبانة والإيضاح"¹.

• جودة وحسن التعبير: وذلك بأن يكون الأسلوب جميلاً سليماً المعاني والألفاظ مما

يجعل الرسالة تنزل منزلة حسنة في نفس المرسل إليه².

في ثنايا هذا الفهم لا يفوتنا أن نؤول بعدم تطويل الرسالة أي عدم الإسراف في القول والإسهاب فيه،

وذلك باستعمال العبارات الجميلة والمحسنات اللفظية الملائمة والطبيعة النفسية لمتلقي الرسالة.

خامساً/ أشهر كتابها في الأندلس:

لقد حظي أدب الرسائل في الأندلس بعدد كبير من الكتاب، من الممكن التعريف بهم ودراستهم، حيث

نجد أن بعض هؤلاء الكتاب جديرين بالدراسة، قد كتب عنهم وألف فيهم كابن شهيد، وابن برد الأصغر، وأبي

عبد الوهاب بن حزم، وابن زيدون... وغيرهم كثير، إضافة إلى جانب هؤلاء الكتاب كتاب آخريين، رأينا أن

ندرس ثلاثة منهم هم: ابن الدبّاغ وابن عبد البرّ، وابن طاهر... فهؤلاء الثلاثة يستحقون الدراسة والتعريف والتتبع

لرسائلهم، فهم يمثلون أدب الرسائل في الأندلس بجميع اتجاهاته وموضوعاته.

¹ السيد أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، دار الفكر، بيروت، لبنان، طبعة مجددة، 2003، ص19.

² مرجع نفسه، ص46.

1- ابن الدَّبَّاغ:

● حياته:

هو أبو المطرّف عبد الرحمان بن فاخر بن الدَّبَّاغ، نشأ في "سرقسطة" وترعرع فيها، ولما كان قد اشتهر بالبلاغة والفصاحة وقد أعلى أمير بلاده المقتدر بن هود مكانه، وقرّبه منه وقلّده الوزارة، والكتابة، إلا أنه حدثت جفوة بينه وبين المقتدر بن هود اضطرته إلى الفرار إلى "إشبيلية"، كان من أسبابهذه الجفوة أنه كان قد بلغ المقتدر بن هود أقوال عن ابن الدَّبَّاغ منها تتبع حركاته وأخباره وتحريف ما كان يشاهده في مجلسه من آثاره وأخلاقه¹.

لقد خشي ابن الدَّبَّاغ عاقبة الأمر واستطاع الهرب وظل محتفيا عدة أيام في "شَنْتَرِيَّة" إلى أن تيقن أن المقتدر بن هود لن يصفح عنه، فوَلَّى وجهه شطر "المعتمد بن عبّاد"، وأكرمه وأجزل قُراه، وقرّبه إليه واتخذ كاتباً له واستعان به في المسائل السياسية، فقد اتخذ سفيراً بينه وبين المتوكل بن الألفطس عندما كان مقيماً "ببائيرة" حين حاول أخوه المنصور بن الألفطس سلب الحكم منه في صدر سنة 461هـ².

لقد اتصف ابن الدَّبَّاغ بالفضل والنبيل كما يذكر ابن بسام، كما اتسم برفعة النفس وعلو الهمة والبعد عن ذلّ الطمع والرغبة في مساعدة ذوي الحاجات وإقالة عثراتهم، وتشير الرسائل التي كان يتبادلها ابن الدَّبَّاغ مع إخوانه وأقرانه من الوزراء والكتاب إلى أنه كان مخلصاً وقيماً لأصدقائه مقدرًا لجمائلهم وفضائلهم عليه³.

¹ مصطفى السباعي، القلائد من فرائد الفوائد، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، د ط، 1988، ص106، نقلا عن فايز عبد النبي القيسي، أدب الرسائل في الأندلس، ص379.

² مصطفى السباعي، القلائد، المرجع السابق، ص106.

³ ابن بسام الأندلسي، الذخيرة، المرجع السابق، ص253.

• رسائله:

ضمّ كتاب "الذخيرة" لابن بسام" قدرًا كبيرًا من رسائل "ابن الدبّاغ" في ذمّ الزمان وأهله وتعدّد آماله فيه وعددًا من رسائله الإخوانية والوصفية، أما المصادر الأخرى التي ترجمت له فقد اقتصر في الأغلب على بضعة رسائل لا تخرج عمّا ذكرته الذخيرة، إن لم تكن منقولة عنها، ومما يؤسف له أنه لم ينتهي إلينا من رسائله الديوانية شيء على الرغم من أنه¹ كتب عن ثلاثة من أمراء الطوائف.

أما الموضوعات التي تناولها ابن الدبّاغ في نصوص رسائله التي انتهت إلينا، فكانت الشكوى من الزمان ووصف النكبات والمحن والمصائب والنقد الاجتماعي والوعظ والدعوة إلى الزهد والقصص والحكايات ووصف الطبيعة، إلى جانب عدد من موضوعات الرسائل الإخوانية كالمديح والثناء والشكر والوصايا والشفاعات².

لقد أكثر "ابن الدبّاغ" من شكوى الزمان وذمّه وتعداد مظالمه وحقّ له ذلك، إذ إنّ عنده من الدهر ما: "يهد أسره الرواسي ويُفتّت الحجر القاسي"، وهو يقطع حياته في شدائد لا تنثني وسكرات غمّ لا تنجلي ونكد أخلاق لا يشوبه ابتهاج وضيق أحوال لا يتخللها انخراج".

وقد أبدع أيضا في وصف الأسى بقلبه من جرح وآثار، وللشوق بين جوانحه من وقود وأوار ولا غرو في ذلك، فالشكوى كما يقول في إحدى رسائله: "مذهب يجول فيه القول كل مجال وينثال عليه الكلام أي انثيال وتتأتى به الألفاظ بازدواجها وتترأى المعاني في معرض إنتاجها"³.

نلاحظ أنّ "ابن الدبّاغ" كان يفتتح أغلب رسائله في موضوع الوصايا والشفاعات بمقدمة في مدح المخاطب وذكر فضائله ومحاسنه أو بذكر تقلبات الزمان وكثرة المحن والمصائب.

¹ فايز عبد التّبي القيسي، أدب الرسائل في الأندلس، المرجع السابق، ص382.

² مرجع نفسه، ص383.

³ مرجع نفسه، ص255.

• الخصائص الفنية لرسائله:

لقد أثنى الذين ترجموا لابن الدَّبَّاح على براعته الفنية وقدرته على الصياغة، فقد وصفه "الفتح بن خاقان" بأنه أحد المشتهرين بالبلاغة المقصرين على التناول في كل إراغة.

- أكثر ابن الدَّبَّاح من استخدام الجمل الدَّعائية والمعتزلة في رسائله.
- من الخصائص الفنية أيضا لأسلوبه التَّنويع بين الشعر والنثر، حيث كان يفتتح رسائله أو يضمونها أو يحتتمها بأبيات من أشعاره أو من أشعار غيره.
- احتفل بذكر الأمثال والأخبار والحكم من الجاهلية حتى عصره.
- أخذ بالكتابة المتأنقة وأكثر من استعمال المحسنات البديعية والمعنوية¹.
- حرص أيضا على الاقتباس من القرآن الكريم فكان يورد بعض الآيات بصيغتها ولفظها، ومن ذلك قوله في رسالة كتبها في موضوع الوصايا: "ولا استبطأت من طول مولاي وفضله، ولكن ليس للمرء من عمل" في قوله عز وجل "خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ" الأنبياء -37.

على الرغم مما تقدم فقد جاءت رسائل ابن الدَّبَّاح مثلة لحياته الخاصة من جهة، وللحياة الاجتماعية المضطربة في المجتمع الأندلسي من جهة ثانية.

¹ فايز عبد النبي القيسي، أدب الرسائل في الأندلس، المرجع السابق، ص 397-398-399.

2- ابن عبد البر:

● حياته:

هو أبو محمد بن عبد الله بن يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم التّمرّي، من أهل "قرطبة"، كان والده أبو عمر يوسف بن عبد البرّ إمام الأندلس وعالمها في عصره.

على الرغم من أنّ أبا محمد بن عبد البرّ ولد لأب يعدّ من كبار رجال الأندلس فقد ضمنت المصادر عن كثير من جوانب حياته، فلم تذكر تاريخ ولادته ومكانها كما لم تتحدث عن نشأته ومراحل حياته الأولى.

ويظهر أن عبد البرّ اشتهر أول الأمر بالكتابة في بلاط مجاهد العامري "بدانية"¹.

وتشير المصادر إلى أن أبا محمد كان من أهل الأدب البارِع والبلاغة الرائعة والتقدم في العلم والذكاء، وتدل رسائله على أنه كان واسع الثقافة مطلقاً على التراث العربي الإسلامي منذ الجاهلية حتى عصره، ولا غرو في ذلك إذا كانت الثقافة العامة شرطاً أساسياً من شروط الكتابة في عصره².

● رسائله:

لقد قضى "محمد بن عبد البرّ" شطراً كبيراً من حياته منتقلاً بين إمارات الطوائف، فكتب عن "مجاهد العامري" وابنه "علي" و"المعتضد بن عباد" وغيرهم، وانتهى إلينا مما كتبه عنه رسائل كثيرة غلب عليها الطابع السياسي، كما كتب في وصف المحن والنكبات التي حلت بالمسلمين وفي الحضّ على الجهاد ضد الصليبيين³.

¹ مصطفى السباعي، القلائد، المرجع السابق، ص170.

² ابن بسام الأندلسي، الذخيرة، المرجع السابق، ص128.

³ فايز عبد النبي القيسي، أدب الرسائل في الأندلس، المرجع السابق، ص406.

امتاز أبو محمد بأوصافه النادرة لبراعة الكتاب وبلاغة المنشئين وفي وصف بعض الأدوات الحضارية والحيوانات الأندلسية النادرة، وقد تناول في رسائله كثيرا من الاضطرابات والفتن والخصومات السياسية التي اشتعلت بين ملوك الطوائف، وكان من انتصاراتهم المزعومة على بعض إخوانه في الدين، كما سجل بعض الأحداث السياسية والتاريخية التي شهدتها الإمارات التي ينتقل بينها¹.

وفي ظل الظروف العصيبة التي عاشها المسلمون في الأندلس، كان أبو محمد أحد أولئك الكتاب الذين نهضوا بدورهم السياسي الصادق والمتمثل بإثارة نفوس الأمراء وتوجيههم إلى توحيد الصفّ وتعبئة الجهود وقطع دُبار الفتنة لمواجهة الخطر الذي يهدد الوجه الإسلامي بالأندلس.

كان ابن عبد البرّ يكثر اصطناع الإخوان واتخاذ الأصدقاء في الإمارات التي كان يحلّ فيها. فقد كتب عددا كبيرا من الرسائل الإخوانية جاء أغلبها في الصداقة وتهاد في الودّ وتبادل العواطف والمشاعر وما يتّصل بها من منح الإخوان وتعذيبهم والشفاعة لهم والشكوى إليهم².

ومن أمثلة ذلك ما جاء في المدح، فهو يمدح مسعى مخاطبه وجهوده بهذا الشأن حيث يقول: "فالله رأيك الأصيل، وسعيك الجميل ومذهبك الكريم، وغيبك السليم وما أصدق ميلك وأهدى دليلك وأوضح في سبيل البرّ سبيلك"³.

ومن الرسائل أيضا ما يتصل بموضوع الصداقة الشوق إلى الإخوان والتطلع إلى سماع أخبارهم ومدح صفاتهم والثناء عليهم، من أمثلة ذلك ما ورد في رسالة خاطب بها أبا المطرف ابن الدّبّاغ، فقد افتتحها بالتعبير عن مشاعر

¹ فايز عبد النبي القيسي، أدب الرسائل في الأندلس، المرجع السابق، ص 197.

² مرجع نفسه، ص 406.

³ ابن بسام الأندلسي، الذخيرة، المرجع السابق، ص 183.

الصداقة نحوه وشوقه إلى سماع أخباره يقول: "فأنا إلى أخبارك متطّلع ولأثار الصديق المخلص من النفس موقع، وقد علم علام الغيوب شغل بالي بك واقتضائي الأيام لك ما تقتضيه لنفسك وذاتك من آمالك وإرادتك..."¹.

نلاحظ بأنه يعبر عن إعجابه بصديقه وبما يتمتع به من طيب السّحايا والشّيم وما يتجلى به من الوفاء والآداب والذكاء.

● الخصائص الفنية لرسائله:

كان ابن عبد البرّ من فرسان النثر الذين نالوا شهرة واسعة في عصره، فقد شهد له عدد من مؤرخي الأدب شهادات تدل على أنه كان يحتل مكانة مرموقة بين كتاب عصره خاصة وكتاب الأندلس عامة.

- كان ابن عبد البرّ ذا براعة فائقة في انتقاء الألفاظ واختيار المعاني، فكان يميل إلى سهولة الألفاظ وبساطتها في معاني الصداقة وتهادي المودة وتبادل العواطف وما يجري مجراها من الموضوعات الإخوانية.

- كان يميل أيضا للإطناب فمعظم رسائله طوال، ويبدو فيها تكرار المعنى بألفاظ مترابطة وعبارات متقابلة وجمل متنوعة.

- من خصائص رسائله أيضا الاحتفال بضروب مختلفة من صيغ الجمل الدعائية التي كان يفتتح بها في أغلب رسائله.

- البراعة في التنويع بين الشعر والنثر. وتأثره بالقرآن الكريم وأساليبه².

3- ابن طاهر:

● حياته:

¹ ابن بسام الأندلسي، الذخيرة، المرجع السابق، ص218.

² فايز عبد النبي القيسي، أدب الرسائل في الأندلس، المرجع السابق، ص416-417.

هو أبو عبد الرحمان محمد بن أحمد بن إسحاق بن زيد بن طاهر القيسي ينتسب إلى أسرة عربية تعتبر من أشهر الأسر في الأندلس، كما يذكر ابن حيّان آل طاهر ذوو بيت عامر وعددٍ وافٍ يفخرون بالعروبية وينتمون إلى قيس عيلان.

وعلى الرغم من أن ابن طاهر ينتسب إلى طبقة رفيعة فإنه لم تذكر المصادر التي ترجمته له تاريخ ولادته، كما لم تذكر مكانها وأغلقت الحديث عن نشأته ومراحل حياته الأولى، ويرجح بأنّ ابن طاهر ولد في "مرسية" من الق 5 هـ، إذ تكاد تجمع المصادر على أنه توفي سنة 507 هـ. وقد تيّف على التسعين¹.

كان ابن طاهر من أهل العلم والأدب والمعارف وكان ظريف التوقيع، خفيف الروح عذب النادرة والفكاهة جواداً كريماً، وكان للشعراء والكتّاب عنده سوق نافقه، وقد انتهجه عدد كبير منهم، كان من أبرزهم ابن عمّار أيام خموله².

● رسائله:

يظهر من خلال نصوص رسائل ابن طاهر أنّه تناول كثيراً من موضوعات أدب الرسائل وأغراضه، بحكم إمارته "المرسیّة"، واتّصاله بعدد كبير من أعلام السياسة والأدب ووقوفه على كثير من الأحداث السياسية والتاريخية في عصره.

لقد تناول ابن طاهر في رسائله عدداً من الموضوعات الإخوانية كالمديح والتودّد والثناء والشكر والثناء والتعازي والشفاعات والوصايا، فلقد كتب ابن طاهر رسائل كثيرة إلى جملة من الأمراء والوزراء الذين وقفوا معه في محنته،

¹ مصطفى السباعي، القلائد، المرجع السابق، ص 57.

² ابن بسام الأندلسي، الذخيرة، المرجع السابق، ص 25.

حيث كان يبعث إليه برسائله شاكرا له مساعيهم ومعترفا بفضلهم ومدحًا إياهم بالنبل والوفاء والتضحية والإخلاص¹.

ومثال ذلك رسالة كتبها إلى "أبي بكر بن عبد العزيز" بعد وصوله إلى "بلنسية"، ومكوته عنده فترة، وقد افتتحها بمدحه والثناء عليه وذكر صفاته الحميدة ومآثره الجميلة حيث يقول: "من ذا يضاهايك، وإلى التّجم مراميك، فشأوك لا يدرك، وشعبك لا يسلك".

من أشهر رسائله أيضا ما جاء في التعازي والثناء، تلك الرسالة التي خاطب بها حُسام الدولة يحيى بن رزين يعزيه بوفاة والده، وقد جمع فيها بين التعزية والمدح، فقد افتتحها بالحديث عن حالته ووصف مشاعره بعد أن فجع بوفاة والد صديقه ابن رزين إذ اشتعلت نار الأسى واللوعة بين ضلوعه يقول:

" كتبت لهفان وقد أسمع التّاعي، فأضرم نار الأسى بين أضلاعي للرّزية العظمى التي رمى سهمها فأصمى يوفاً...."².

نلاحظ هنا بأن ابن طاهر يتحدث عن صفات ابن رزين ومآثره فيتذكر أنه حاز جميع المحاسن والفضائل، وقل نظراؤه ويصوّر عظم المصيبة التي حلت به.

● الخصائص الفنية لرسائله:

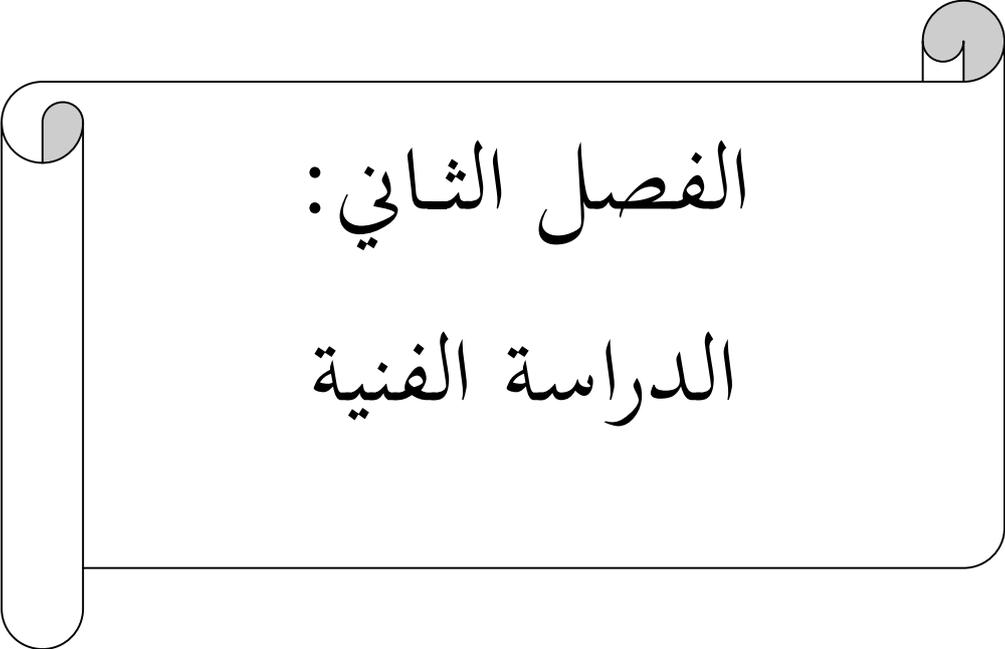
- اشتهر ابن طاهر بتقدمه في البلاغة وتفردّه بالبيان.
- كان يهتم بالجمل الدعائية والمعتزضة اهتماما كبيرا، وكان يختار من صيغها ما كان يلاءم مضمون الخطاب ويناسب العاطفة والمشاعر التي يحس بها.

¹ ابن بسام الأندلسي، الذخيرة، المرجع السابق، ص 57.

² مرجع نفسه، ص 85.

- حرص أيضا على تضمين رسائله الشعر سواء كانت هذه الأشعار من فريضه أو من نظم غيره من الشعراء المشاركة.
- من الخصائص الفنية لأسلوبه أنه كان يلجأ إلى كثير من معقود الشعراء فيحله، ويدخله في مضمون عباراته ببراعة وإتقان.
- كان يورد الاقتباس من القرآن الكريم والأحاديث النبوية بصيغتها ولفظها.
- لجوئه إلى المحسنات البديعية والمعنوية المختلفة¹.
- ووفقا لهذه الدراسة يحرو بنا أنّ هؤلاء الكتّاب الثلاثة يمثلون أدب الرسائل في الأندلس بجميع اتجاهاته وموضوعاته، "فابن الدّبّاغ" كان يغلب على رسائله الاتجاه الاجتماعي، وقد جاءت معظم رسائله مملوءة بالشكوى من الزمان واضطراب الأحوال، وقد جرت بعض رسائله مجرى القصص والحكايات، أمّا "ابن عبد البر" فقد غلب على رسائله الاتجاه السياسي والحديث عن الصداقة وتهادي الودّ، وامتاز بأوصافه النادرة، في حين اشتهر "ابن طاهر" بالحديث عن الجهاد والصراع ضد الصليبيين.
- ولقد جرى هؤلاء الكتّاب أتراجم كتّاب الأندلس، في الأخذ بالمثل الأعلى السائد والسير على مقاييس العصر الأدبية.

¹فايز عبد النبي القيسي، أدب الرسائل في الأندلس، المرجع السابق، ص 439-440.



الفصل الثاني:

الدراسة الفنية

بعدما تطرقنا إلى أهم المحطات التي شهدتها الرسالة من موضوعات وخصائص أدبية، جاء هذا الفصل تطبيقاً للدراسة الفنية للرسالة. انطلاقاً من هيكلها الخارجي ثم السمات الفنية التي تميزت بها هذه الرسالة.

أولاً: البناء الفني للرسالة

1- هيكل الرسالة:

الرسالة الأندلسية كان شأنها فيما يخصّ بناءها الفني، أو فننقل بناء هيكلها الخارجي شأن المناظرات أو المقامات هي الأخرى بداية بالمقدمة، مروراً بفحوى العرض (الموضوع) وصولاً إلى الخلاصة أو الهدف الذي من الممكن الوصول إليه من وراء هذه الرسالة ألا وهي الخاتمة، وبادئ الأمر يكون مع:

أ/ مقدمة الرسالة:

تنوعت مقدمات الرسائل وفقاً للغرض منها وللحالة المزاجية للكاتب، فكانت بعض الرسائل تبدأ بدايات تقليدية بحمد الله والثناء على رسوله وبعضها يبدأ بالبسملة، وبعض أخذ يبدأ بالثناء على المرسل له. والمقدمات أنواع فمنها ما يبدأ ببسملة وحمدلة، أو سلام ودعاء أو المبادرة إلى الموضوع مباشرة، وذلك لما يقتضي حال كل رسالة.

ومن الرسائل التي كانت مقدماتها بالبسملة نجد ذلك في بعض رسائل الشوق والوجد الديني كقول ابن أبي الخصال في إحدى رسائله إلى المقام النبوي والحجرة الشريفة وقد افتتح بالبسملة والصلاة على الرسول الكريم قائلاً: "بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله... إلى الرؤوف الرحيم الرسول الكريم"¹.

¹ ابن بسام الأندلسي، الذخيرة، م1، المرجع السابق، ص286.

ويظهر ذلك أيضا أن هناك عددًا من الرسائل لا تخلو من البسمة ومقدمات الاستفتاح، حيث تبدأ بالبسمة والصلاة على الرسول الكريم، كبعض رسائل الجهاد والصراع مع الصليبيين، وخاصة رسائل الاستنجد بالمرابطين كقول "المعتمد بن عباد" في رسالة يستصرخ بها "يوسف بن تاشفين"، ويستميله لنجدة الأندلس: "بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما... إلى حضرة الإمام أمير المسلمين وناصر الدين..."¹.

بدأت الرسالة بالبسمة والصلاة على رسول الله، وذلك لعلم المرسل بالترعة الدينية المتمكنة في نفس المرسل إليه. وكما جرت العادة في استفتاح الرسائل بالبسمة صاحبها في ذلك الحمدة ومن نماذج هذا النوع نجد رسالة "ابن أبي الخصال" في الشكر على نزول الغيث التي جاء فيها: "الحمد لله الذي لا يكشف السوء سواه ولا يدعوا المضطر إلا إياه نزل فقرنا بغناه، ونعود بسخطه برضاه ونستغفره لذنوبنا..."².

حيث بدأت الرسالة بحمد الله والثناء عليه، فهي رسالة شكر الله وقدرته وعظمته على نزول الغيث.

ومما يواكب هذه النماذج نجد من الأمثلة التي تحمل في طياتها دعاءً إلى المرسل إليه كقول "أبي عبيد البكري" مهنتاً "المعتمد بن عباد" بانتصار المسلمين في معركة الزلاقة: "أطال الله بقاء سيدي ومولاي الجليل القدر، الجميل الذكر، وهناً ما منحه من فتح ونصر واعتلاء وقهر"³.

وقول "أبي فضل جعفر ابن شرف القيرواني": "أطال الله بقاء الوزير الجليل الأجدد الأوحى أعلى مرتقاه في العز"⁴.

¹ محمد لسان الدين ابن الخطيب، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، مطبعة التقدم الإسلامية، تونس، د ط، د ت، ص 45.

² أبي عبد الله بن أبي الخصال، رسائل ابن أبي الخصال، تحقيق محمد رضوان الداية، دار الفكر، دمشق، ط 1، 1988، ص 272.

³ ابن بسام الأندلسي، الذخيرة، المرجع السابق، ص 235.

⁴ مرجع نفسه، ص 882.

وإلى جانب النماذج السالفة الذكر هناك بعض الرسائل تخلو من المقدمات وتبدأ بالموضوع مباشرة ومن ذلك قول "أبي محمد بن عبد البر" مخاطباً أحد إخوانه: "وقفت على ما حددته من مقابلة السّفرين المشتملين على فنون الآداب وصناعة الكتاب، وطرف الخطاب..."¹.

إن المتأمل في مقدمات الرسائل ومطالعها نجدها لا تتخذ في نمط و قالب واحد بل تتنوع وتتعدد ما بين بسملة وحمدلة ودعاء والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وكل ذلك حسب ما يقتضيه الحال والمآل، فمقصد المقدمات جلب الانتباه وحمل المتلقي على القراءة والاستماع.

ب/ موضوع الرسالة:

يعد الغرض أو الموضوع المرجع والقاعدة الأساس لكتابة الرسائل فهو يقع بين فحوى المقدمة والخاتمة، والذي فيه يطلق الكاتب صريح أفكاره وعنان آرائه فهو السبيل الذي يفضي فيه الكاتب غايته ومقصده. وعليه يأخذ هذا الحيز الحظ الأوفر من الكتابة سواء طال أو قصر، يبرز فيه الكاتب إرادة ومرمى النص ومن خلاله يستكشف مدرك الرسالة ونوعها.

إن التخلص من المقدمات إلى العرض، يكون على وجهين:

الأول هو ابتداء الخطاب أي أن يبدأ الكاتب بذكر ألفاظ أو عبارات تدل على ابتداءه بالخطاب كقوله: "كتببت، وكتابي، وكتابنا، وخطابي، وأما بعد..."².

¹ ابن بسام الأندلسي، الذخيرة، المرجع السابق، ص201.

² أبو القاسم الكلاعي، أحكام صنعة الكلام، تحقيق محمود رضوان الداية، دار الثقافة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، د ط، 1966م، ص78.

ومن الأمثلة على ذلك ما ورد في رسالة كتبها "أبو المطرف بن الدبّاغ" مخاطباً بها بعض إخوانه واصفاً روضة غنّاء من تلك الرياض التي كان يتردد عليها يقول: "كتابي هذا من وادي الزيتون ونحن مختلفون لبقعة اكتسبت من السندس الأخضر"¹.

وهناك رسائل أخرى مشابحة لما أوردناه كقول أبي بكر بن القصيرة عن أمير المسلمين إلى أهل مكناسة: "أما بعد أصلح الله من أعمالكم، ما اختل وأصلح من وجوه صلاحكم ما اعتل"².

أما الوجه الثاني للتخلص من المقدمات إلى الغرض المقصود فهو رد الجواب أي أن يذكر الكاتب أنه يرد على كتاب المرسل إليه كقوله: "ألقي، وورد، ووصل، ووافاني"³.

ومن الأمثلة على ذلك قول أبي عامر بن مسلمة في رسالة كتبها عن المعتمد بن عبّاد إلى الوزير "أبي حفص الهوزني" يرد فيها على رسالته التي يصف فيها نكبة المسلمين "بزئشتر" ويحظه فيها على الجهاد لإنقاذ الأندلس "وردني كتابك الأثير المقابل بين النثر البليغ والنظم البديع"⁴، وقول أبي المطرف بن دبّاغ مخاطباً بعض إخوانه: "ورد لك كتاب خلته للطفه سماءاً وتوهمته من خفته هباءاً"⁵.

كما نجد أنه قد يداخل الكاتب بين ابتداء الخطاب ورد الجواب، كقول أبي بكر بن القصيرة في رسالة كتبها إلى "أبي القاسم بن الحد"، يعتذر فيها عن عدم التقاءه به وقد قربت المسافة بينهما: "كتبت ولسان القلم

¹ أحمد بن محمد المقرئ، نفع الطيب من غضن الأندلس، ج1، المرجع السابق، ص534.

² مرجع نفسه، ص105، 106.

³ أبو القاسم الكلاعي، أحكام صنعة الكلام، المرجع السابق، ص79.

⁴ ابن بسام الأندلسي، الذخيرة، المرجع السابق، ص118.

⁵ مرجع نفسه، ص648.

يتلعثم، وقدم الكلم يتأخر أكثر مما يتقدم هيبية لانتقادك.. ووصل إليّ-وصل الله اعتلاءك وأتلّ مجدك وسناءك- خطابك الكريم...¹.

وفي نفس الصدد نلاحظ تنوع موضوعات الرسائل ولكل موضوع طريقة مختلفة ينتهجها الكاتب، فنجد مثلا المنهجية في الانتقال بين فقرات الرسالة: مثل رسالة المعتمد بن عبّاد إلى الأذفونش في رده على رسالة أرسلها له الأخير يهدده ويتوعده، وجاء رد المعتمد بقوله: "إلى الطاغية الباغية أذفونش بن شائجة، الذي لُقّب نفسه بذي الملتين-قطع الله دعواه- سلام على من اتبع الهدى، أمّا بعد فإنه أول ما نبدأ به دعواه أنه ذو الملتين والمسلمون أحق بهذا الاسم منه لأن الذي تملكوه من أمصار البلاد، وعظيم الاستعداد لا تملكه قدرتكم ولا تعرفه ملتكم...²".

حيث جاء الرد معتمدا على تنفيذ دعاوى المرسل وفقا للترتيب نفسه الذي جاء في رسالته من حيث رد أولا على دعواه أنه ذو الملتين ثم أخذ يرد على طلبه بتسليم البلاد إلى آخر فقرات الرسالة.

أيضا المباشرة في عرض موضوع الرسالة: ومن هذا النوع من الرسائل رسالة ابن هود إلى علي بن يوسف بن تاشفين لما علم بنيته في غزو مملكته شرق الأندلس وجاء فيها: "... ولا يمكننا تسليم أيدينا إليكم يتحكم فينا الإذلان، ويتحكم في محالنا الاستنقاص بالحقوق والإحتلال، ولم يتقدم منا إليكم ساءت جهرة بالقول، ولا أمرت ولا أجلت بجنابكم لا غزو ولا ضرر، بل نفيض عليكم استمالتنا، ونستعطفكم في كل حال مقالتنا...³".

تبين لنا هنا أن الكاتب عرض لوجهة نظره بمنطقية وعقلانية مبررا لها بأسلوب واقعي.

¹ ابن بسام الأندلسي، الذخيرة، المرجع السابق، ص296.

² محمد لسان الدين ابن الخطيب: الحلل الموشية، المرجع السابق، ص23، 24.

³ مرجع نفسه، ص72.

إن مما امتازت به مضامين الرسائل الأندلسية أن الرسالة في عرضها النصي تتحدث من البداية إلى النهاية في موضوع واحد لا تحيد عنه، مع استخدام ألفاظ ومعاني كل غرض بما يليق به.

ج/ خاتمة الرسالة:

إن مما يستدعيه المنطق ويستلزمه الواجب أن لكل بداية نهاية ولكل مقدمة خاتمة، فقد اتخذت خواتم الرسالة أشكالاً وقوالب عديدة ومتعددة، كما اتسمت بصيغ كثيرة ومتنوعة ما بين سلام ودعاء، وتحية وتعزية،... إلخ.

وذلك وفقاً لموضوع الرسالة والغرض من إرسالها على نحو:

أن تختتم الرسالة بالدعاء للمرسل إليه والسلام عليه، ومن ذلك قول "ابن الحنّاط" في ختام رسالة كتبها على لسان البهار إلى "المقتدر بن هود": "والله يمتّعك برياض الآداب تجتني أزهارها، وتنتقي خيارها..."¹.

ومن ذلك أيضاً ما ورد في رسالة كتبها أبو القاسم بن الجذّ في العناية بأحد الأدباء: "والله يقيك هذا الشأن تذييع أسراره وترفع مناره بعزته..."².

وقول المعتمد بن عبّاد في ختام رسالة يستصرخ بها يوسف بن تاشفين لنجدة المسلمين في الأندلس: "والسلام الكريم على حضرتكم السامية ورحمة الله وبركاته..."³.

ومن خواتم الرسائل أن تختتم الرسالة بحكمة يريد أن ينقلها المرسل إلى المرسل إليه، وذلك في مقام النصح والإرشاد مثل: رسالة ابن التكريني نجده يؤكد على خطورة الفرقة والانقسام ولكن بأسلوب مختلف فيقول: "فيا

¹ ابن بسام الأندلسي، الذخيرة، المرجع السابق، ص 196.

² مرجع نفسه، ص 311.

³ لسان الدين بن الخطيب، الحلل الموشية، المرجع السابق، ص 46.

للمسلمين تعالوا إلي التعاون، واتفقوا ولا تفرقوا، واتفقوا عاقبة الخذلان، وقد ناديت إن أسمع، ونصحت بقدر ما استطعت، فإن وافقنا قبولاً ولقيت تأويلاً جميلاً، فإن الخير عنيد والتناول غير بعيد... فإما ألفة وانتظام، واتفاق يحي رمق الإسلام، وإما داعية تلف وراعدة صلف، وهنالك تزل القدم ولا ينفع الندم"¹.

ختمت الرسالة بحكمة يريد المرسل أن يعلمها للمرسل له وهي أنهم إذا لم يستجيبوا لدعوته لهم والتضافر، فإن ذلك سيعقبه الندم في وقت لن ينفع فيه الندم.

لقد تعددت خواتم الرسائل وتنوعت في صيغ وأشكال جمّة، ميّزها الدعاء للمرسل من جهة، وبحمد الله وتحيّة الإسلام من جهة ثانية ومن هذا تجلّت محاسن الخواتم.

لقد وقع اختيارنا على مدونة رسائل ابن أبي الخصال، وستتطرق إلى دراسة تطبيقية لهذه المدونة:

ثانياً/ التعريف بالمدونة:

يعدّ كتاب ابن أبي الخصال مدونة من العصر الأندلسي، الذي حققه الدكتور محمد رضوان الداية إلى القارئ وذلك في إطار سلسلة كتب تراثية أندلسية ومغربية، اجتهد المحقق منذ زمن في تحقيقها وإخراجها تباعاً، بحدوده إلى ذلك حب للتراث وائتلاف معه، وإعجاب عميق الفور بالفكر الأندلسي والحضارة العربية الإسلامية في ذلك القطر من أطراف الدولة الإسلامية السالفة في أيام عزّها وبساطتها، وحافز علمي يقدر من خلفه الأجداد في فنون العلم والأدب وضروب المعرفة المتعددة الجوانب.

والكتاب ينشر عن أصل فريد قدّم المحقق وصفه في مقدمة التحقيق وهو لواحد من أشهر كتّاب الأندلس، اجتهد في قراءته ونقله وضبطه وشرحه وصنع له فهرسة فنية مناسبة².

¹ لسان الدين بن الخطيب، الحلل الموشية، المرجع السابق، ص 238، 239.

² ابن أبي الخصال، رسائل ابن أبي الخصال، المصدر السابق، ص 5.

يدل الكتاب على شيء غير قليل من حقيقة ابن أبي الخصال ومواهبه وصلاته بأهله وإخوانه وبزملائه الكتاب والعلماء والأدباء ومن لم يذكر.

يضم الكتاب رسائل كثيرة في أغراض شتى وخطبا نوقلت وخطب بها بعض الخطباء ومقامات وأشعار، ويتجلى في جميعها براعة في الكتابة الديوانية والرسائل الإخوانية بقصد توجيه تعليمي قاصد. يبدأ الكاتب بالبسملة والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم دون أي مقدمة ممن جمع الكتاب، وينتهي بمستدرك فيه بعض الخصائص والمقاطعات والرسائل التي لم ترد في المخطوطة المعتمدة في الكتاب¹.

وصاحب هذه المدونة هو عبد الله بن أبي الخصال بن مسعود بن طيب، بن فرج بن أبي الخصال الغافقي الأندلسي، ولد سنة 465هـ، في "فَرْعَلَيْط" من جهة "شقورة"، كان أشهر الكتاب في زمانه، وعدّه الأندلسيون رئيس كتاب الأندلس، وحفظوا رسائله حفظا، كان من أهل المعارف الجمّة والإتقان لصناعة الحديد والمعرفة برجاله والتقيد لغريبه وإتقان ضبطه والمعرفة بالعربية واللغة والعدد والنسب والتاريخ متقدما في ذلك كله وأسرته أسرة موصولة بالعلم أصيلة فيه.

له تاريخ حافل في الخدمة السلطانية والحصول على الجاه والمكانة، لم يلتحق بديوان أحد من أمراء الطوائف، وترقى في هذه الخدمة فكتب لعلي يوسف بن تاشفين وهو والي على غرناطة.

شارك ابن أبي الخصال في الفنون الثرية الشائعة في زمانه، فقد ألف فيه المقامات وبرع في نظم الشعر وله شعر كثير، وله مؤلفات مصنفة ورسائل مطولة منها ما ذكره له "المقري" في نفع الطيب كتاب اسمه (سراج الأدب) وله رسالة سمّاها (لحة البارق وقذف المارق) وله أيضا كتاب (المنهج في معارضة المبهج)².

¹ ابن أبي الخصال، رسائل ابن أبي الخصال، المصدر السابق، ص 6.

² المصدر نفسه، ص 9، 10، 11.

وخلاصة ما يتبينه الدارس من مطالعة أخباره وما يجده مما أورده عن نفسه من آثاره شخصية العالم المثقف والكاتب البارِع والمدبّر القدير والصدّيق المنظور إليه بالتكّرمه الموصوف بصفات الوُدّ والإخلاص والتفاني في الخدمة والإفّادة.

ولقد كان قلمه مدققاً سيالاً ووقته موزعاً بين عمل يديره ورسالة يدبجها، وحديثه يفيد به، ومحاضرة يلتفت حولها التلامذة والمدبرون.

قتل في سنة 540 هـ في الفتنة التي حدثت في قرطبة بين "ابن حمدين" و "ابن غانية"، ألقى مقتولاً قرب باب داره وقد سلب ما كان عليه بعد نهب داره¹.

هذه المدوّنة من العصر الأندلسي، ألفها الكاتب الفقيه أبي عبد الله بن أبي الخصال الغافقي الأندلسي، حققها الدكتور محمد رضوان الداية وهو أستاذ أدب الأندلس والمغرب في جامعة دمشق، نشرت من طرف دار الفكر دمشق، سورية، طبعته الطبعة الأولى وهي طبعة قديمة طبعت في سنة 1407هـ-1988م، ذو حجم كبير يحتوي على 755 صفحة، ارتفاعها 24 سم، نوعية الورق نوعية جديدة عادية، كما تحتوي على بعض المخطوطات التي خطّت باليد، عدد رسائلها 138 رسالة، وهي رسائل تتميز بالطول والقصر.

ولأبي عبد الله بن أبي الخصال ديوان رسائل يدور بأيدي أدباء الأندلس قد جعلوه مثلاً يحتذونه ونصّبوه إماماً يقتفونه.

ثالثاً- السمات اللغوية لرسائل ابن أبي الخصال:

إن الغاية من اكتشاف جماليات العمل الأدبي لا تقف عند الجوانب الأسلوبية فقط، بل تكمل جماليات النص من خلال الكشف عن أهم العوامل الفنية التي شاركت في إثراء التجربة النثرية لابن أبي الخصال، لذلك

¹ ابن أبي الخصال، رسائل ابن أبي الخصال، المصدر السابق، ص 13.

عمد الكاتب إلى الاستعانة بأساليب مختلفة داخل النص النثري ووظفها بطرق فنية جميلة تمكنه من إيصال الفكرة للمتلقي، معتمداً في ذلك على لغة واضحة بسيطة، وكما أن أي عمل نثري لا يخلو من الصور الفنية التي يلجأ الناثر إليها لتجسيد تجربته النثرية والكتابية التي يعيشها، والتي تجعل النص النثري يموج في نغم رائع يزيد من جمال التجربة ويرفع قيمتها.

أ/ اللغة:

إذا أتينا إلى دراسة لغة ابن أبي الخصال نجد لها لغة سهلة بسيطة، فهو قد قرأ اللغة على أيدي كبار علماء عصره، فضلاً عن تلقيه القرآن حفظاً وتفسيراً، وقد أشار هو إلى ذلك قائلاً: "ومن الله أستوهد المعونة على شكره، والنهوض يلازم أمره والنفوس متشرّفة، واليوم وروده الحميد معترفة، فإن رأى -أيده الله- متابعة التشريف بإنجاز الإشعار به والتعريف"¹.

ومن يقرأ رسائل ابن أبي الخصال يجد نفسه إزاء كاتب متمرس باللغة، متمكن منها، وأن مجمل الألفاظ التي استخدمها في رسائله تكاد تشكل معجماً لغوياً لا يستهان به ولا تكاد رسالة من رسائله تخلو من الألفاظ المعجمية وتطرد هذه الظاهرة في جميع رسائله، ومن أمثلتها في رسائله، رسالة كتبها يتشفع فيها لرجل لقبه بالزرزور، فجاء فيها من هذه الألفاظ (الأعظم، الأنظم، الأرعند، الأرفع)²، وتكثر هذه الألفاظ في رسائله الإخوانية ومن أمثلة ذلك قوله: "... بالعيش الأرعند باليوم وبالغد كازدحام الوفود واقتحام غمرات الجود بإنجاز الوعود..."³.

¹أبي عبد الله بن أبي الخصال، رسائل ابن أبي الخصال، المصدر السابق، ص54.

²المصدر نفسه، ص34.

³المصدر نفسه، ص34.

ومن هنا فقد مكنه محصوله اللغوي من بسط معانيه في طواعية واختيار الألفاظ المناسبة للمعنى ووضعها في مواضعها الصحيحة.

ب/ الأسلوب:

إن الأسلوب الذي هو الطريقة التي يعتمد عليها الكاتب في إنشاء رسائله وأشعاره يعد وجه الكاتب وعموده، وكان ابن أبي الخصال شديد الكلف باستخدام المشتقات على اختلاف أنواعها تلك الخاصة من أبرز خصائصه الأسلوبية، ومن أمثلتها قوله في إحدى رسائله: "مرحبا بشمس القبائل، وعقلية العقائل، ورودة الحزن، ولؤلؤة العون والحزن، وبشقيقه ماء المزن، وقصيرة الحجال، وتمية التمام والكمال، الباسقة الخلال المحفوفة بالمجد عن يمين وعن شمال، ومن اللواتي علون مقدار، وبعدن عن الفحشاء والهون دار..."¹.

وتعد معظم رسائل ابن أبي الخصال ذات طابع إنشائي وقد طغى في معظم رسائله على الطابع الخبري، وتلك الخاصة بارزة في نثره عموما.

فلقد جعل الأسلوب الإنشائي عمود رسائله لأنها أقوى من الأسلوب الخبري في إحداث التأثير النفسي لدى المتلقي.

حيث نجده جمع فيها جميع ضروب الإنشاء ومن ذلك قوله في إحدى رسائله "... وبينى وبين ذلك حاجز وصرف ضرورته ناجز - بلى! إن لي في ذلك الجانب الكريم، والسترو والصميم إذا أحلته عليه، تشنيته واثقا إليه منفسحا، عريضا وسيرا مستفيضا، وأيادي تشني وجوه مطالبه بيضا"².

¹ أبي عبد الله بن أبي الخصال، رسائل ابن أبي الخصال، المصدر السابق، ص 35.

² المصدر نفسه، ص 77.

نلاحظ في نثر ابن أبي الخصال عموماً روحه الشعرية، فهو يقترب من روح الشعر في مواطن عديدة من رسائله، حتى يخيل إلينا ونحن نقرأها، أننا نقرأ شعراً لا نثرًا فقد مزج في كثير من رسائله الشعر والأخيلة والموسيقى وجعلها من روحه الشاعرة، حيث جعلها تبدو وكأنها قصيدة نثرية، فمن ذلك قوله في إحدى رسائله الإخوانية: " ... وعلمي أنك لو أجمعت حرباً وأشرعت شبة، وسللت غرباً، ثم استزلتك بأيسر أذمتنا مستنزل"، واستحملك تلك الحفاظ الدامية بما مستحمل، لوضعت أوزار الحرب، وأخمدت نار الطعن والضرب وعُدت إلى السلم، وتجاهلت على فرط العلم..."¹.

وعليه فإن ابن أبي الخصال قد كتب هذه الرسالة بروح الشاعر لا الناثر، فالشعر يسري في شريانه بلغته العذبة وألفاظه الرقيقة وصدوره النابضة، وإحالاته وأنغامه الصادحة، بل إن بعض عباراتها تتوافق مع الوزن الشعري.

ج/ الإيجاز والإطناب:

تنوعت أشكال النصوص الأدبية في صياغتها إيجاز أو إطناباً كل على حسب ما يقتضيه الحال ويستدعيه المال، فأحياناً يقتضي الأمر على الكاتب الإيجاز في القول وتقليص الكلمات، وأحياناً أخرى يقتضي الإطناب في القول والإطالة فيه.

فالإيجاز حسب هذا التعبير هو تقليص أكبر معنى في أصغر مبنى، أي أن يشير إلى عدد كبير من المعاني بكلمات قليلة.

وقد ورد في رسائل ابن أبي الخصال عددًا من المراسلات الموجزة.

¹ مصدر سابق، ص 75.

أما فيما يخص الإطناب فيقوم أسلوب ابن أبي الخصال في جملة عليه، والتوسع في رصف الألفاظ وبسط المعاني، ووجود هذه الظاهرة في رسائله يرتبط بما ذكرناه عن ثراء لغته وتمكنه من ناصيتها، ومن مظاهر هذا الإطناب: الميل إلى الترادف والتكرار، وتقليب المعنى على وجوه مختلفة، والمزاوجة بين الجمل والعبارات، ومن أمثلة ذلك قوله: "... وتلك سبيلنا المستمرة وحالنا المستقرة التي لا تنفصم-بحول الله- عراها ولا تختل قواها، ولا تقاصر يد الزمان يداها، ولا يقف دون مداها، والمستعان الله -مداها-..."¹.

إن هذه الظاهرة (التكرار) قد استعملها ابن أبي الخصال كحيلة ليضفي على أسلوبه لونا من الجمال الذي يتمثل في هذا التلوين الصوتي والإيقاعي المتولد من تعاقب الجمل وتوافق فواصلها.

ومهما يكن من أمر فإننا نلاحظ أن سمة الإيجاز والإطناب تظهر في كثير من موضوعات الرسائل الديوانية والإخوانية، فابن أبي الخصال كان يراعي ظروف إنشاء الرسائل ومناسبة الإطناب والإيجاز فيها لمقتضى الحال.

د/ الإقتباس والتضمين:

لم ينفرد ابن أبي الخصال بهذه الطريقة بل كانت سمة عامة النثر الأندلسي في عصره، وإن كان الكتاب قد تفاوتوا في الأخذ بها باختلاف ثقافتهم ومواهبهم غير أن ثقافته الواسعة جعلته ينفرد بهذه الخاصية على غرار الكتاب الآخرين.

-التضمين:

باعتبار ابن أبي الخصال شاعراً وناثراً على حد سواء، فإنه كان يضمّن معظم رسائله شعرا سواء تحريراً أو تعبيراً، وقد استحسّن معظم سكان الأندلس هذه الطريقة وتعد معظم رسائله الإخوانية، رسائل لا تخلو من الشعر وخاصة القديم منه، وعلى سبيل المثال نذكر إحدى رسائله التي جاء فيها قوله: "تفتّيت صان الله فتاءك، وكثر

¹أبي عبد الله بن أبي الخصال، رسائل ابن أبي الخصال، المصدر السابق، ص73.

ريعتك وإتاءك ، وقطع بالخيرات أناءك وعمر بالمسرات فناءك بما تراه أنسا بما طلع من تلقائك وطربا بخطابك يعادل طربي بلقائك. وما كنت لولاه لأنفث، وما كان خاطري -يشهد الله- ليعث وذكربي خطك الخط وكننت ناسيا ولعل الزمان قد ألان من تلك العدة قلبا قاسيا، فإن نشطت فكما أيعع الزهر ومدّ جداوله النهر، فقد تورك النظر وبورك البصر...¹.

ومما جاء في التضمين لرسائله قوله أيضا: "إنّغرى سلّي، أو عاتب سرّي وجلّي، وأمر وأحلى أو مدح توجّ وحلّي، أو قدح أخلق وأبلى، أو غرّ سؤل وأملّي، لا جرم! إنّ له القلم الأعلى، والذروة الباسقة لا تظهر ولا تعلّى...²".

تبرز في هذه الرسالة ظاهرة التضمين واضحة في قوله: "قدح أخلق وأبلى".

-الإقتباس:

أكثر ابن أبي الخصال في رسائله من الإقتباس من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وهذا يدل على اتساع ثقافته الدينية واتّسع في ذلك اتساع كبيراً، فكان يطوقها بنصها حتى يستفيد من الأسلوب القرآني فيها ويقدمها كدليل وبرهان. ومما جاء في رسائله من الاقتباس قوله: " الحمد لله ذي الحكمة البالغة، والنعمة السابعة، الذي اعتمدنا بالإحسان ابتداءً، وانشأنا من نفس واحدة إنشاءً، وجعل منها زوجها تماماً ووفاءً، وبثّ منهما رجالا كثيرا ونساء...³".

ويظهر اقتباسه في هذه الرسالة في قوله: "وبثّ فيها رجالا كثيرا ونساء".

وهو مأخوذ من قول الله عز وجلّ في كتابه العزيز: "وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً" النساء الآية-1-

¹ أبي عبد الله بن أبي الخصال، رسائل ابن أبي الخصال، المصدر السابق، ص 64، 65.

² المصدر نفسه، ص 146، 147.

³ المصدر نفسه، ص 31.

كما نلاحظ كثرة الاقتباس في معظم رسائله الإخوانية كقوله " ... وقصرت عنها يد

المتناول، فكأنها سماء ملئت حرصاً شديداً وشهباً لا تلبث لاستراق السمع مريدا..."¹.

يظهر لنا الاقتباس في قوله: "ملئت حرصاً شديداً وشهباً" فهو مقتبس من قوله عز وجل: "وَأَنَا لَمَسْنَا

السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَصًا شَدِيدًا وَشُهَبًا" الجن الآية -8-.

ومما يذكر له في إحدى رسائله، اقتباسه من سورة الكهف والكتابة على مسلكها في قوله: "... (يجزون) من

تهديب نسق الحقوق وتقصاها ويتلون: "يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها"².

فالإقتباس واضح جدا في سورة الكهف من خلال قوله تعالى: " يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا كِتَابٍ لَا يُعَادِرُ صَغِيرَةً وَ لَا

كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا" الكهف الآية -49-.

كما نجد له اقتباس آخر في قوله: " للإمام الأجل-أيده الله- مثل الخير ولا تناولته يد الغير، ولا وجد

أواما ولا ذعرت له الحوادث سواما، ويا نار الحزن كوني عليه بردا وسلاما..."³، فهو مقتبس من قوله تعالى: "فُلْنَا

يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ" الأنبياء الآية -69-.

ضف إلى ذلك أنّ ابن أبي الخصال بنجده يقتبس من الأحاديث النبوية الشريفة ويسلك فيها مسلك آيات

قرآنية، كقوله في إحدى رسائله: " المؤمن خامة زرعٍ وذؤابة فرع، تفيئها الرياح يمينا وشمالا، وتلين في يديها أدبارا

وإقبالا والكافر أرزّه مجذية تتحاماها المعرّة ثم تكرر عليها كرهة فيكون انجعافها مرّة..."⁴.

¹ أبي عبد الله بن أبي الخصال، رسائل ابن أبي الخصال، المصدر السابق، ص 63.

² المصدر نفسه، ص 63.

³ المصدر نفسه، ص 96، 97.

⁴ مصدر سابق، ص 95.

وقد اقتبس الكاتب الحديث الذي رواه كعب بن مالك رضي الله عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "مثل المؤمن كالحمامة من الزرع تفيئها الرياح تصرعها مرّة وتعدها أخرى حتى يأتيه أجله، ومثل الكافر مثل الأرزة المجدية على أصلها لا يقلها شيء حتى أنجعافها مرّة". مسند الإمام أحمد.

كما نجد من الأحاديث أيضا، قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "أيّ الناس أشدّ بلاء؟ فقال الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، فيبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلبا اشتدّ بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلى على حسب دينه فما يسهح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة"¹.

وقال صلى الله عليه وسلم: "ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده، وماله، حتى يلقي الله وما عليه خطيئة"²، رواه الترميذي .

جاء هذا الحديث في سنن الترميذي حدثنا عليه من باب الصبر على البلاء.

إضافة إلى حديث آخر في قوله: "أيها البدران المتسقان، والغصنان المعتنقان والكفان

المنتظمان، على سنة الإيمان وطاعة الرحمن، على البركة والخير، وبأسعد جدّ وأيمن طير، وبالوفاء والبنين وتوالي خصب السنين، وتخليف الثمانين وبلوغ المئين، بالصحة تدوم و تودم، بالسرور يوجد ولا يعدم..."³.

حيث جاء هذا في حديث المغيرة بن سعية أنه ذكر امرأة لرسول الله وأنه يخطبها فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لو نظرت إليها فإن أخرى أن يؤدم بينكما" مسند أحمد.

¹أي عبد الله بن أبي الخصال، رسائل ابن أبي الخصال، المصدر السابق، ص96.

²المصدر نفسه، ص96.

³المصدر نفسه، ص33.

ومن ذلك أيضا نجد في قول ابن أبي الخصال: "وأشهد أن محمدا رسوله المرتضى، وحسامه المنتضى وأمينه المصطفى، الذي أُرِدَفَ به، على فترة من الرُّسل وقفى، وفوّض إليه فشفى وكفى، وختم به الأنبياء ووفى وجعله أكثرهم سوادا..."¹. هذا الحديث مقتبس من قوله صلى الله عليه وسلم "... خمس ما أثقلهن في الميزان: لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله، والحمد لله، والولد الصالح يتوفى فيحسبه والده" مسند أحمد.

وعليه فإن الاقتباس يعد ظاهرة بلاغية وجدت بكثرة في نثر ابن أبي الخصال، ممّا يوحى باتساع ثقافته الأدبية والدينية على حد سواء.

رابعاً/ دراسة موضوعية لنماذج مختارة:

سنعتمد في التطبيق على مجموعة من الرسائل الديوانية والإخوانية لنعرف ما هي أهم الخصائص الفنية لفن الترسل التي حافظت عليها الرسالة الأندلسية أو تخلّت عنها أو أعطت لها بدائلها. تختلف الرسالة في أصنافها باختلاف الموضوعات التي تطرقها ومن بين أنواع الرسائل التي ظهرت في الأندلس الرسائل الديوانية والإخوانية.

1- الرسائل الإخوانية:

تشغل الرسائل الإخوانية مساحة واسعة من نثر ابن أبي الخصال على غرار الرسائل الأخرى، وتشير هذه الرسائل إلى صلته بمعاصريه من الأدباء والعلماء، وتدور مواضيع الرسالة الإخوانية حول موضوعات عديدة، تتصل بالصدقة أي التي ترسل بين الأشخاص كالمودة والإحاء والتهادي والعتاب والاعتذار والشكر والتعزية والتهنئة... إلخ.

¹ أبي عبد الله بن أبي الخصال، رسائل ابن أبي الخصال، المصدر السابق، ص 197.

أ/ التهنية:

تتنوع موضوعات الرسائل الإخوانية ومن بين الموضوعات التي طرقها ابن أبي الخصال في رسائل التهنية والتي تمثل لون من ألوان المشاركة الوجدانية بين الكاتب وأصدقائه تعبيراً عن أوصاف المودة والصداقة، وتتنوع الموضوعات التي تتناولها رسائل التهنية، فمنها ما يتصل بمناسبة اجتماعية سارة كالزواج أو التهنية بمولود ومنها ما يتصل بمناسبات شخصية كالتهنية بولاية القضاء وغيره، وقد كتب ابن أبي الخصال في هذا النوع رسائل كثيرة ومن ذلك رسالة كتبها يهنئ فيها بعض الرؤساء بمقدمه يقول:

" أطال الله بقاء الرئيس الأجل، السيد الأفضل، ذي المآثر الموصوفة، والفضائل المألوفة، عالياً أمره، سامياً ذكره، متوالياً تأييده ونصره: ولا زال اليمن يسايره، والتوفيق يظاخره ويؤازره: بحول الله.

كتابنا أيده الله، وتمم عليه عوارفه ونعماه، يوم السبت غرة شهر ذي الحجة - عرقه الله بركة أيامه ولياليه، ولا أحلاه فيه، وفيما يليه من من يصله ويواليه. ولدينا من الاستبشار بمقدمه الحميد، والاستشرف إلى احتلاله السعيد، والدعاء المتواتر بالتوفيق والتسديد، ما يكون عند من تحقق محله المنيف، ونصابه الرفيع الشريف. والله يجب فيه صالح الدعاء، ويهنئه ويهنئنا فيه، ما ألبسه من جميل الذكر والتناء، فهو ولي الفضل والتعماء، بعد وصول الكتابين الكريمين، والتذكرة المقترنة بالثاني منهما، فقرأنا جميع ذلك ووعيناه، وصرنا إليه وامتلناه، ووقع النظر فيما تضمنته التذكرة من الأسباب المقدمة نحوه، والأسباب المأمورة بإعدادها وجميعها عتيد إلى أنيقدّم بحول الله. وقد شخّص فلان ثالثنا، وشيعته أبقاه الله، وعنده في جميع ما يتطلّع إليه، ويستشرف نحوه، من أمور البلد، البيان العام، والشفاء التام، وبه غنينا عن التطويل، واقتصرنا على ذكر القليل، اكتفاء بعلمه ومعرفته، وإحالة على تفسيره وصفته، ومن قبله يقف -أيده الله- على ما تيسر من المال الذي استدعاه وإن بعضه مما تأتي من الجباية،

وبعضه مما استقدم سلفا على ما يقتضى منها، وقد نفذ ما حدّه-أيده الله- في أمر فلان، وما وقع تشكيه، فلا
درك على أحد منّا فيه"¹.

امتازت هذه الرسالة بقوة الفصاحة والرونقة في الأسلوب، حيث ضمّنها الكاتب ألفاظ زادتها بهاءً وجمالا
مثل: (الأفضل، المأثر، الثناء، التّعماء...)، وهي ألفاظ بسيطة واضحة بعيدة عن التعقيد والغموض، نلاحظ أيضا
في رسالته هذه اعتماده على أسلوب راقى في طريقة إنشاء رسالته، كما احتوت هذه الرسالة على تسلسل الأفكار
والإلمام بالموضوع، كما وظّف خاصة السجع، من خلال قوله: "...عرّفه الله بركة أيامه ولياليه، ولا أحلّه فيه،
وفيما يليه منّ يصله ويواليه..."، وهذا من أجل إحداث التأثير الموسيقي المنشود إضافة إلى بعض المحسنات
البدعية والصور البيانية، مثل الجناس (الموصوفة/المألوفة) (الحميد/السعيد)... إلخ.

حيث أظهر الجناس أهمية كبيرة في صياغة النصوص الثّرية من خلال البنية السطحية الصوتية المتماثلة،
والبنية العميقة الدلالية المتخالفة ممّا جعله مؤثرا عميقا وكثيرا بالمتلقي بإثارة فكره وعنايته.

ومن ذلك أيضا في التهنئة رسالة يهنئ فيها عاملا بولايته يقول: " يا عمادي الأعظم، ومصادي
الأعصم، وردأ استظهوري الأكرم، وإمامي الأهدى في الخطب إن أعتم، ومن أطال الله بقاءه لعزّ يستأنفه مشيد،
وعمر يستقبله جديد، ومهّل سائغ الظلّ مديد، كتبت- أدام الله عزّك-والقتاد ثمار، والثمار غمار، وعود الزّمان-
بعودتك الحميدة-، نصّار، أجل لقد شبّ بعد الهرم، وأعرب عن عهد صريح الكرم. وإنّ دهرا لبس رونق بمائك،
و ملكا شدّ باكتفائك، وأوثر ببقية عمرك الزاكية وغنائك، لجدير أن تضحك رياضه، وتفهبق حياضه، وتجم أمواله
على العلل، وتبرأ أمواله من الأعراض والعلل، وتطرّد بالسّداد ومصالح العباد قوانينه، وتتقد بمصاييح الإلتقان
والإحسان دواوينه، وتنظم الفوائد في سلكها فرائد فتسرّ الناظر، وتبهج الزائر بحقائق في حدائق، خطرت
بالجداول، وقصرت عنها يد المتطاول، فكأنها سماء ملكت حرسا شديدا، وشهبا لا تلبث لاستراق السمع مريدا،

¹ أبي عبد الله بن أبي الخصال، رسائل ابن أبي الخصال، المصدر السابق، ص 80، 81.

منها بخطام، ومعكوم بكعام، [يجزون] من تهذيب نسق الحقوق وتقصاها، ويتلون: (يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُعَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا).

فالحمد لله الذي أحيى الأعمال منك بزادها، من بعد ما ضرب على آدائها، فشوّ الفياء تكسع بأغبارها، وعُلب الحلب تملأ إلى أصبارها، فهنيئا لراعي الأمة، وكاشف الغمة، يئمن سياستك، وأمن حياطتك وحراستك، وهنيئا للأولياء عامة، ولي بك خاصة، ما أتقلده من إمامتك، وأناله بتجدد كرامتك من مضرة طائلة ومسرة في كل عضو جائلة، متعني الله فيك بنعمه، وجعلك في كلاءته وذممه ولا زلت في وثيق عصمه بمنه وكرمه، ... وكانت تلاحقت لك عندي كتب كريمة، عاق عن إنفاذ المراجعة عنها، على تهمم بها، وإعدادي لها، تعذر من برضى أدائه، ويوثق إنهاؤه، مع التشغيب الذي كان لا يسوغ ريقا، ولا يوجد إلى حاجات النفس طريقا، ولا أحتاج مع ما تعلمه من اعترافي ببرك، وتعظيمي لقدرك، إلى عذر أقرره، أو مانع أفسره، فجانب قبولك لي أسهل ووجه إقبالك أطلق وأجمل ولا بد من مكاتبة خطيرة أجتلي حالك السنوية منها تفسيرا، وأرى بها وجه رضاك مشرقا مستنيرا، إن شاء الله¹.

إنّ من أبرز ما يلاحظ على هذه الرسالة اهتمام ابن أبي الخصال بالصنعة اللفظية وجنوحه إلى التأنق اللفظي، وعنايته برسم الصورة وإكثاره من الإشارات والإحالات والتضمينات والاقْتباسات ومثال ذلك اقتباسه من القرآن الكريم من سورة الكهف: "يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُعَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا" إلا انه ابتعد في رسالته هذه عن الشعر، وقد طغى عليها السجع الذي أعطاه نغما صوتيا، نحو: "لقد شبّ بعد الهرم، وأعرب عن عهد صريح الكرم"، إضافة إلى تضارب الألفاظ واستعمال المفردات استعمالا تسلسليا يوحى بالفكرة.

¹أبي عبد الله بن أبي الخصال، رسائل ابن أبي الخصال، المصدر السابق، ص 62-63.

ب/ التعزية:

لابن أبي الخصال مجموعة من الرسائل موضوعها التعزية منها رسالته هذه إلى تعزيتته بوفاة ولد يقول:

" سيدي الأعظم، وعتادي الأكرم، ومفرعي فيها أهّم ومن أطال الله بقاءه ثابتا في الملمات جلده، آنسا عند الصدمات خلده، لولا أن للذين-أعزك الله- سنة في المواساة، راكبها متبع وتاركها مبتدع، لما ذكرت منك ذاكرا، ولا تُبّهت حامدا لله تعالى، فيما ناب، شاكرا، وبلغتني الفجاعة الوجيعة بالنجيب الحسيب ريعانة أنسك، ومن نفسه مشتقة من نفسك، أواه الله إلي رضوانه، ونعمّه في جنانه، وثقل به ميزانك، وأخلى من الفجائع زمانك، فأخذت من ثكله بالحظ الأوفى وساهمت فيه مساهمة الولي الأحفى، وخفّي علي الأمر أو كاد يخفى، لما أنا بسبيله من أشغال لا تنفس، وأمور: وجوه مخارجها تلتبس، وأنت-أدام الله عزك- تعلم أنّ أمري من أمرك، في شؤون دهرك، و خلوك ومرك، وقلك وكثرك. فإن اتفق تأخير أو عرض تقصير فصدرك ينشرح، وعدوك لي ينفسح والله تعالى يمدّ في حياتك، ويدود المكاره عن ساحاتك، وينجز لك ما وعد به الصابر المحتسب في حيمه، من وجوب جنته، ونصرة نعيمه وبحليف صفائك أمس حاجة إلى معرفة ما تلقيت به هذا المصاب من صبر جميل كريم وتسليم من الجزع والشكوى سليم، متّعت بأعلاقك، ولا فجعت بشرف سجايك وأخلاقك، وعوّضت من فانيك أجرا خالدا، وأحسن ما عوّض الله من ولدٍ برّ والدا بجوده ومجده¹.

لعلّ اللآفت للنظر في هذه الرسالة أنّها كتبت من أجل الإشادة بمحاسن المتوفي والإكثار من التوجع لفقده، وإظهار مدى الخسارة التي حاقت بأهل المتوفي إلى التأسّي والتحلي بالصبر وغالبا ما نجد رسالة التعزية تتقدم بمقدمة قصيرة يمهّد بها للموضوع نحو "سيدي الأعظم وعتادي الأكرم، ومفرعي فيها ومن أطال الله بقاءه".

ويؤكد كذلك على أن الموت حق مؤكد ينبغي التسليم به.

¹أبي عبد الله بن أبي الخصال، رسائل ابن أبي الخصال، المصدر السابق، ص56.

مثل: "وينجز لك ما وعد به الصابر، المحتسب في حميمه، من وجوب جنّته ونصرة نعيمة"

أيضا: "بلغتني الفجعة الوجيعة بالتّجيب الحسيب ريعانة أنسك ومن نفسه مشتقة من نفسك...".

نستخلص في رسالته هذه، أنه يؤكد على الجانب الوعظي، وهو بصدد التعزية والمواساة، فهو يدعو إلى التّجلد والتّأسي، وابن أبي الخصال في أغلب تعازيه يتكئ على الجانب الوعظي الذي يهيمن على كثير من موضوعاته النثرية، وقد يكون سبب ذلك هيمنة الثقافة الدينية على تكوينه.

ج/ التهادي (الإهداء):

يعد التهادي موضوعا من مواضيع الرسالة الإخوانية في نثر ابن أبي الخصال، وهو انعكاس واضح للتطور الحضاري الذي تميّز به المجتمع الأندلسي، وهو من ناحية أخرى تأكيد على رسوخ أوطار المحبة والمودة بين الكاتب وأصدقائه، ولأن أبي الخصال في هذا الباب رسائل عديدة كتبها إلى مجمل أصدقائه تتضمن إهداء أو تبادل للمواضيع ومن بين الرسائل في هذا المجال نذكر:

" أعزك الله، لما كان أطف المعاني مأخذا، وأقرها إلى الأرواح خلوصا ومنفذا، ما هبّ نسيما، وسرى شميما، وتنافست فيه الأنفاس نشقا، وتبارت به سبقا، واستخفته نقلا، ولم تحمل منه ثقلا، تجهزت إليك بلطيمة، وفأرة مسك، تاجر بقسيمة، مسك يحمل أرج الثغور، ودعج العيون الحور، كأنما تألف من خيلان الحدود، وحلم النهود نبت بين الغدائر السود، أو نضحته ليالي الوصال طلا، وأجنته سدفاها طلا، يشق بالوهم فيرسخ رسوخ الفهم، ويعلق بالإيمان، فيثبت ثبوت الإيمان، وسيوجد له في السرائر يوم تبلى، شذى لا يبلى.

وألوي من اللدونة ملويا كأنما جمع من اللّمس، أو تولّد من تمّي الأنفس، يغنى بالنفس عن القبس، يروي عن الخلد فيشوق، ويحدث فيسوق، كان أبا البشر صافح عيدانه، وحملها العرف أمانة، فهي تبرأ إليك من عهدة حملها، وتؤدّيها منك "إلى أهلها".

وكافور له فضل غير مكفور، كأنما اشربته الكواعب علقا، فلفظته نخورها عرقا، وأسقطته أغصان القدود ورقا، وقد غادر في الندي حجوما، وأثمرها نجوما، كأنه عن رضاك تبسم أو من صفاتك تجسم.

وجادي، جادت به الشمس وقد جادت وأهدته وما كادت تسلّمته صباحا، وأسلمته جناحا، وعصبته عقارا، وأدته نضارا، ونَدَّ ليس له نَدَّ، من قلوب الطيب مستمد، قد جمع جمع التفسير، وخلص تخليص الإكسير، إن فضّ منه مثقال الدرة عمّ الثقلين، وفضل عن الدارين، كأنما فُتق بدكائك، أو سرق من ثنائك أجل؟ إنها أخلاقك عُرضت عليك وبضاعتك "زدت إليك" وأنت في قبولها كالتحل يجني من شهبه والجرح يأكل من صيده"¹.

وبناء على ما جاء في الرسالة نرى أنها تحولت إلى قطعة وصفية عند أبي الخصال يجعلها معرضا لإثبات مهارته، في رسم الصورة وتوليها، مثلا في تصويره للمسك الذي يعتمد على عنصر اللون والرائحة، وهذا القول مقتبس من قول عنزة بن شداد:

وكأنّ فأرة تاجر بقيمة سبقت عوارضها إليك من الفم.

وهو في تصويره للمسك أكثر وضوحا، فهو يعني في إيجاد علاقات بين موضوعه الوصفي وهو "المسك" وبين العناصر الأخرى، مشكّلا للرسالة الذي تضمنها الإهداء، فالمسك - في سواده - هدف من توظيفه.

كما نجده وظف الاقتباس مثل قوله: "وسيوجد له في السرائر يوم تبلى" فهي مأخوذة من قوله عز وجل في سورة الطارق: "يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ فَمَالَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ" الآية (9-10)، حيث شكل الاقتباس من القرآن الكريم ركنا أساسيا من أركان الكتابة الإخوانية.

¹ أبي عبد الله بن أبي الخصال، رسائل ابن أبي الخصال، المصدر السابق، ص472، 473، 474.

د/ العتاب:

يعدّ العتاب موضوعاً رئيسياً من أهم المواضيع التي تناولها ابن أبي الخصال في رسائله الإخوانية، فمن ذلك رسالة كتبها إلى أحد أصدقائه يعاتبه فيها لأنّه صاخ سمعه لبعض من حاولوا الوقعة وإفساد الود بينهما:

"ياسيدي الأعظم، وعلق إذخاري الأنظم، وردأ، استظهاري الأكرم، وصبح إسفاري للدهر إن أظلم، ومن أطل الله بقاءه في الجناب الأنعم، والسعد الأدم، والصنع الأجل الأعصم. ليس الودّ-أعزك الله- بتزويق اللسان، ولا تنميق البنان، ولا الشآن في روية مكثية، ولا بديهة حثيثة، ولا في أساطير في الصحف مبثوثة، وإنما هو ما قر في الفؤاد ورسخ في الإعتقاد، وثبت في مواطن الاعتداد، وليس الجدة والقدم، وخامر اللحم والدمّ وتلك سبيلنا المستمرة، وحالنا المستقرة، التي لا تنفصم-بحول الله- غراها ولا تختل قواها ولا تتقاصر-يد الزمان- يداها ولا يقف دون مداها-والمستعان الله- مداها.

وإذا استندنا إلى هذه الثقة، ونفوس متفقه، وقلوب على الرضى مصفقه، فلا مدرج للارتباب ولا حرج في الإغباب نعم، ولو ترتّب عن عمد ووجب على تيمّم وقصد، وصادف صدرا منشرحاً، ووقتا لمطالعه منفسحاً، وفقرا مجلوة، ورقاعا على قدر محدوة ودهنا مشتعلا وكلاما سمحا منفعلا، وأقلاما تصوّر ما في النفس وتلّف سقطه في ملاءة النّفس، لما أثبت حكماً، ولا لفت عن أوله عزمًا، ولكان كيف كان عمداً أو سهواً، هدرا ذاهبا ولغوا.

هذه -أعزك الله- طريقة ودنا المثلى وعقيدة عهدنا الوثقى عليها نحتمل-وبردائها- رداء الضمير نشتمل، وكلانا- أعزك الله! كيف دار وأياما اختار، في سعة ورخاء وعلى منهج برّ وإحباء إنّ وإلى فعن فضل، وإن أغبّ ففي غير معتبة ولا عزل وإذا ثبتت هذه العقيدة والحجج المستفيدة، فلا عليك -أعزك الله- أن تحفض لأخيك الصّدق جناحا وتحفض عنه إيجابا وإسجاحا.

وإنّ كتابك الكريم واني بعد فترة اثمرت فيها ما اثمرت، وأضمرت-ويغفر الله لك بها- ما أضمرت، ثم أبي الطّبع الكريم والأواصر التي عطفتك كما يعطف الحميم، إلّا أن تفيء فيء المنعم، وتفيء وفاء البرّ المقسم، وتلغي ما حكمه الإلغاء، وتصغي إلى داعي الصلة وحقه الإصغاء، فسوغت من المضرة ما نغست وأتمن من المسرة ما نقصت¹.

وتماشيا مع ما تمّ ذكره أن ابن أبي الخصال استهّل رسالته بالحديث عن المودة الراسخة التي لا تنفصم عراها: وقد انقاد في هذه الرسالة ولم يتصنّع فيها وهذا راجع لطبيعة الموضوع الذي تناوله. فنلاحظ أن هذه الرسالة قد خلت من التّصنع والتّكلف واحتوت على الأسلوب المباشر، لأنها تتناول موضوع إخواني وهو موضوع العتاب، كما احتوت على الجمل القصيرة والألفاظ المعبرة الموجهة من مثل: (طريقة ودنا المثلى وعقيدة عهدنا الوثقى).

كما نجدها تحمل في طياتها أيضا أساليب إنشائية كالنداء نحو قوله: (يا سيدي الأعظم).

وعليه فكان من الطبيعي أن يدرك صاحب هذه الرسالة ويصغي إلى نداء الضمير بعد أن وقع ضحية المآمرات.

هـ/ الوصايا والشفاعة:

تحتل رسائل الوصايا والشفاعة مكانا بارزا من نثر ابن أبي الخصال، ففي ترسله مجموعة كبيرة من هذه الرسائل، كما تدل على انتشار غيرها ظاهرة الوساطة على نحو واسع نتيجة عوامل اجتماعية وكان أبرزها وضع الأندلس، ونذكر نمودجا لإحدى الرسائل التي كتبها ابن أبي الخصال يتوسط فيها لرجل، جاء فيها:

¹ مصدر سابق، ص73، 74.

" سيدي الأعظم، وسندي الأعصم، ووزري الأيمن الأكرم، الذي أرى له الحقّ الأئزم، وأُعترف له بالفضل الأقدم، ومن أطال الله بقاءه معتلي المراتب، محتمي الجوانب، نامي الآلاء والمواهب.

ما بيننا-أدام الله عزك-، والله يحميه ويعرفنا المزيد الموفور فيه -يقتضي التنبيه على الحسنات والانبساط في الرغبات.

و(فلان) توجّه في أمره من الاستدعاء له ما تعلّمه وهو يضنك المطرق إلى تلافيه والمسبب لذلك الرأي الكرم فيه. وبذلك وبما قويّ في نفسه منه تأنس، ونشط وسرّ وانبسط وسار منفع الرجاء معوّلا عليك في جميع الأنحاء، معتقدا أن ما يناله من مبرّة ويلقاه من بشرٍ ومسرة، ويفضي إليه من استقرار في أوطانه وعون على زمانه معدود في حسناتك، منبعث على الكريمة ذاتك مطرد في سيرك الجميلة وعاداتك.

وأنت-دام عزك- تريش جناحه، وتتعهد صلاحه، وتستحلّ الثواب في جمع شمله وصيلة حبله، مؤفقا معانا: إن شاء الله¹.

لوحظ لنا من هذه الرسالة أنها قطعة أدبية، فقد احتوت على العديد من الوصايا على شكل جمل قصيرة وسريعة، تشبه ما يعرف ببطاقات التوصية والوساطة، ومثال ذلك في قوله: "وسار متسّفح الرجاء معوّلا عليك في جميع الأنحاء"، وقد اكتسب الرسالة طابعا وأمرا اجتماعيا، طلب فيه ابن أبي الخصال التوسّط لرجل ولهذا فقد ألحق رسالته بأسلوب الخطاب المباشر، إضافة إلى كثرة الاعتراض والجمل القصيرة.

هذا في الوصايا، أمّا فيما يندرج تحت موضوع الشفاعة ومن ذلك ما جاء في قوله: "سيدي الأعظم، وعتادي الأنفس والأكرم، ومصادي الأعظم لا زلت في أحمى الجوانب والذمم.

¹أبي عبد الله بن أبي الخصال، رسائل ابن أبي الخصال، المصدر السابق، ص136.

الشفاعات-أدام الله عزك- تشعب والفروض النادرة تنقل وتتصعب وموديه سلمه الله توجهت له إلیا عناية، وترتبت فيه رعاية والرغبة إن تيسرت في تحقيق حظّه من هذه الوجيبة والكلفة الشاملة القريبة، والله بوجدك إلى ما في نفسك من الإجمال سبيلا، ولا يعدمك صنعا حسنا جميلا، بعزته¹.

تميّز أسلوب ابن أبي الخصال في رسالة الشفاعة هذه بتناوله لموضوع الطبقة العامة، حيث استعمل فيها الأسلوب المباشر كما انتقى فيها عبارات التوصية والشفاعات وهي رسالة كتبها إلى بعض ذوي الشأن في تزكية صديق، وهي معرّزة لرسالة أخرى كتب بها كاتب آخر يتوسط للصديق نفسه، إضافة إلى ابتعادها عن الاقتباس والتضمين وخلوها منهما تماما، وقد كثر هذا النوع في رسائل ابن أبي الخصال.

ومن مثل ذلك أيضا رسالة كتبها يتشفع فيها لإنسان يريد أن يجمع له ما يسد حاجاته أثناء موسم جني الثمار الصيفية، جاء فيها:

"يا سادتي وأوليائي وأحبّي وأصفيائي-أعزكم الله- وأبقاكم وحرسكم وتولّاكم، الصيفية -أكرمكم الله- موسم التقاط ومعلم استظهار على القوت واحتياط، وإذا كانت الدرة على دقة جسمها وقلة جرمها تقبل وتدبر، وتقتني وتدخر وتعرض لحطم الظلف والحافر والخف، فالإنسان في سعة حواياه، وانفساح أركانه وزواياه، وشهوته الملتهبة، ومعدته الملتهمة أولى بالأعداد، وأدخار الزاد.

وفلان قد نظم ماثركم، وسرد مفاخركم، وأجاد أمداحكم، وانتجع سماحكم، وهو يرجع إلى عيال ويمسي ويصبح على اختلال، وأنتم بكرم انفعالكم، وعادة إجمالكم، تتبهون إلى مواساته، وتسدون من خللاته، إن شاء الله².

¹ أبي عبد الله بن أبي الخصال، رسائل ابن أبي الخصال، المصدر السابق، ص 129.

² المصدر نفسه، ص 61.

إنّ ترسل ابن أبي الخصال إلى عبارة عن خطبة يشكوا فيها حالة الرجل يطمع في مساعدته والتشفع له ويضطلع في مدد يد العون والمساعدة لذوي الحاجة، مستثمرا في ذلك مكانته وما كان يتمتع به من صلات اجتماعية واسعة.

وكما أسلفنا فإنه في هذه الرسالة قد جمع بين السلوك العلمي (الرسالة) وشخصيته المثالية وقد تميّزت رسالته بالقصر والخلو من المقدمات، والميل إلى الوضوح والمباشرة.

و/ الاعتذار:

يعدّ الاعتذار غرض مهم في نثر ابن أبي الخصال، فهو يعبر عن الوفاء والصداقة والمودة بين المتراسلين، من بين رسائله نجد رسالة يعتذر فيها من نفوذ قبل وداع وخجل، يقول:

"لشيء-أدام الله عزكم- ما كره العذب خصرا، وحبب الليل قصرا، وهذب الطويل مختصرا، ولذلك شمّرت الذبول، وسمّرت الخيول، وأرهفت النصول، وكفت من الروض نفحة ووفت بالحسن صفحة وميّز الجنس بواحد، وقيد الحق بشاهد، وكلفت بالوفاء فلقة نبع وألوت بالعزاء رمة ريع، واقتصر البرق على اللحم، وناب السهم عن الرمح، وقد كنت أيام ترددي بحضرتكم الحالية، بطواقبكم، العالية بماثركم ومناقبكم-أدام الله حراستها وحفظها كما أجزل بنفاستكم خطّها- أقنع بتنسّمكم، وأتقلّى من تجشمكم، وأرفع خطاكم البرّة عن قدر وأراه تقع في حر وجه أو على بصر، لا جرم أنّ لها فوقها ختما أجد بالتّوهم وسمه، وأعلم بالتألم خطه ورسمه، ولما تظاهرت علي المنن، وغلق أحيذكم، المرتخن ولى باديا وأبق متفاديا، وتسلسل لوادا، واتخذ الفرار، ملاذا فلا طالب أوشك من اهتبال ولا قرن أفتك من إجمال ولعلكم-أهلكم السرور وعلّكم- قد فرطتم في جنبي، "وتفرقت بكم السبل" في عتي وأنه

لموضع احتمال، وموطن نظر واستدلال، وأولاكم بالصواب والقصد، من احتال للودّ، وأبقى على العهد ومنها: إنّما وقع وفاقا، لا نفاقا، وتجاويا لا تنافيا، وإلا فكيف أختار على الرزق حرمانا وأعتاض من الربح خسرا؟!¹.

واستنادا إلى ما جاء في الرسالة نرى أنّها نحت منحى الرّقة واللين والاستعطاف، حيث نلاحظ أن الكاتب كتب اعتذاره هذا بطريقة سلسلة وبعبارات قوية، والملاحظ أيضا أنّها سارت على نمط واحد.

حيث نلاحظ تقابل الأسجاع وتجانس الألفاظ، فقد جاءت ألفاظها بسيطة موجزة وموحية ليس فيها غموض وإبهام، كذلك جاءت طريقة كتابتها الفنية بالالتزام بالسجع في آخر الفواصل، ومثال ذلك (وميّز الجنس بواحد، وقيد الحق بشاهد...)، وذلك من أجل جلب المتلقي بطريقة مشوقة، إضافة إلى أن هذه الأخيرة قد طغت عليها الصّور البيانية والمحسنات البديعية من مثل الطباق، فنجد الطباق الإيجاب: الذي يقوم على الضدية بارزا بشكل كبير، ومثاله (قصير ≠ طويل، ربح ≠ خسارة)، حيث نلمس فيه أنه شكّل ملمحا بلاغيا بارزا، وهذا جلّه من أجل أن تظهر صورة هذه الرسالة واضحة، ممّا يزيد من دقة العبارة ويعطي لها رونقا يتناسب وذوق القارئ.

2- الرسائل الديوانية:

لقد قضى عبد الله بن أبي الخصال معظم حياته في خدمة السلطة، حيث تقوم معظم رسائله على المواضيع والأغراض ذات الصبغة السياسية والتي تناول أعمال الدولة وما يتصل بها، من تولية الولاية، فتنوّعت الرسائل التي كتبها عليهم واختلفت مواضيعها، ومن أهم المواضيع التي كتب فيها موضوع الحرب والجهاد فكانت أهم رسائله رسالة كتبها عن أحد الولاة من المرابطين إلى أمير المسلمين علي بن يوسف يقول:

"أطال الله بقاء أمير المسلمين، وناصر الدين، مؤيدا بجنوده، معانا بتوفيقه، وتسديده ولازال عدله ينعش الأمم، وسعده ينهض الهمم، كتبت -أدام الله تأييده- من قرطبة-حرسها الله- لست بقين من جمادى الآخرة،

¹أبي عبد الله بن أبي الخصال، رسائل ابن أبي الخصال، المصدر السابق، 463، 464.

وقبل بثلاث وافيتها من الوجهة التي صحبتني ومن معي فيها يَمِّن أمره، واكتنفتنا عزة نصره، بعد أودعنا حصن أرليتة-حماه الله- قوتا موفورا، ومرفقا كثيرا، وحطت عندهم الأسعار، وعم الاستبشار، وتسلم أبو الخيار مسعود الدليل-سلمه الله- الحصن واحتوى عليه وصار أمره إليه.

ووافينا فلانا-أبقاه الله-قد استاق غنيمة ظاهرة، وجملة من البقر وافرة، وقتل من العدو-قصمه الله- عددا وقضى وطرا، وشفى وحرا، فتيمن الناس هناك بولاية الأمير أبي يحيى-أعزه الله- وبقيادة هذا القائد الذي اقترن الفتح بمآتاه. وكانت، مقدمنا هذا الحصن خيل طليطلة -بددها الله- مجتمعة فوقدهم الرعب وشملهم الصغار والرغم. وتحققنا هناك أنّ مواشي تلك الجبال، قد أخذت في الانبساط والإسهال، والدنوّ من الوادي طلبا للخصب وتحولا من البرد إلى الدفء. والله يجعلها للمسلمين طعمة ويزيدهم بها قوة بعزته.

وأبناء العدو-قصمه الله- الآن خامدة، وعزائمهم هامدة، وأيديهم جامدة، استأصل الله بجدّ أمير المسلمين نعمهم، وقطف قممهم، وأداخ بلادهم، وانتسف طارفهم وتلادهم وألفيت الحضرة-حرسها الله- وقد أخذ السرور من أهلها كل مأخذ، وسرى فيهم كل مسرى ومنفذ، بولاية الأمير أبي يحيى-أعزه الله- وكثر الدعاء لأمر المسلمين-أيده الله- بما جدّد لديهم من حسن نظره، وخلع عليهم من جمال سيّره، ولقيته فلقيت كل ما أبحج، وكان وفقا لما انتشر ومشاكلا لما استداع وظهر، تمّ الله النعمة، وظاهر عليه الكفاية والعصمة. "ووافنتي" كتبه الكرام ممّا بلغ الأمل، وحسم العلل، ولنا ممثل في كل معنى ما يحده، مجتهد فيما يقيم ذلك الثغر ويسده إن شاء الله عز وجل"¹.

من خلال رسالته هذه، نجده برع في تهيئة المناخ النفسي الملائم من شحذ العزائم واستنهاض الهمم وتهيئة النفوس واستنفارها للجهاد في سبيل الله، والملاحظ من هذا نلمس أنه قد حشد في رسالته هذه أدواته الفنية

¹أبي عبد الله بن أبي الخصال، رسائل ابن أبي الخصال، المصدر السابق، ص493، 494، 495.

ووظّفها توظيفاً مناسباً، حيث ضمّنها مجموعة من الصور البيانية والمحسنات البديعية المتمثلة في السجع مثل:

"مؤيّداً بجنوده، معانا بتوفيقه وتسديده..."

ومن الصور البيانية يظهر الطّباق بارزاً مثل طباق الإيجاب في قوله: "البرد \neq الدفء" إضافة إلى احتوائه على الصنعة اللفظية والأسلوب المباشر.

وهناك لون آخر عالجّه أبي الخصال، في نشره الديواني، وهو رسائل التولية والتعيين ومن ذلك رسالة كتبها إلى يوسف بن تاشفين:

"أطال الله بقاء أمير المسلمين، وناصر الدين ومهدّ به دولة العزّ المكين، والحرز الأمين، ولا أخلاه من التسديد المعين، والتّوفيق الواضح هديه المستبين، بحوله لا ربّ سواه، في علم الله سبحانه أنّنا نلتزم من طاعة أمير المسلمين، ومحبتة بظهر الغيب ومناصحتة في السرّ والجرّ، ونستصحب من عادة الدعاء له بتأكيد حفظه وحراسته، وتخليد ملكه ورياسته، وامتناع الدين والدنيا بجلالته ونفاسته، ما هو عندنا الحقّ المتعيّن نبديه والفرض المترتب نؤديه، وأمر الله الموجب علينا نمتثله ونحتديه وبحكم ملتزمنا من هذا النهج الذي قامت أدلّته وشهوده، ووضح وضوح الصبح عموده، نحصر ألاّ يلمّ بحضرته الكريمة من ذكرنا ولا ينمي إليها من أمرنا، إلّا ما يقرر ولاء، ويكرّر انقطاعاً وثناء ولم نزل في كنف إحسانه، وظلّ سلطانه، نستديم نعمته الشاملة بالشكر، ونشايح في نوافذ أموره مشايحة الإخلاص والبرّ سالكين مسلك أسلافنا-رحمهم الله- من طاعة أولي الأمر، قانعين بما أنسدل علينا من الكفاف والستر، لم نستزده -أعلى الله أمره-، أثره، ولا ابتغينا فوق ما قسمهم لنا من سوانح الحظوظ المقتبسة من دولته العلية رتبه، إلى أن نفذ كتابه الكريم إلى ابننا محمد بن عبد الرّحمان طاعته، مضمّنا من توليته القضاء بفلانه ما لم تتقدم فيه عندنا رويّة، ولا عقدت على التوطئة له مسعاة ولا نية، فغشينا من ذلك أمر اشتبه قصده، وكبر قبوله وردّه، ولكن عدلنا الحكّمين، ووزنا الحرمتين، فتركنا بحكم طاعته الصغرى التي ما توقعناه على ابننا هذا من مطايات تلحقه

ومقدمات تسبقه، إذ كان هناك من يرى أنّ الأمر أمره لا ينتزع، والمكان مكانه لا يطاع فيه سواه ولا يسمع، للكبرى التي فيها موافقة الجفاء ومحاضرة السّمعة والرياء، بما يتأوّل من الإستعفاء، واعتقدنا مع علمنا، أنّ لا نؤتي من قبله، وأنه لا يعدو حدودنا في نظره وعمله، وأنه سيأوي من أمير المسلمين وناصر الدّين إلى ركن شديد، ونصر عتيد وغوث غير بعيد، فلم ينشب أن ورد من صرفه ما لم نجعل أن الله تعالى قد خار لنا وله فيه ومنّ بتداركتنا وتلافيه، من مخاوف كانت ظنوننا المشفقة تستشف عقباها ولا تتحدث بسواها، ولما أعجل عن الاختبار، وصرف قبل التجربة والسّبار، خفنا بل تحقّقنا، أنّ ذلك لسعاية ساع استّحل ما شاء من قرفه، وأدرك ما أمّل من تأخيرهِ وصرفه، وإلا فلم تكن ثم مهلة يظهر فيها صلاح ولا فساد، ولا عمل يلحق عنه خرق ولا سداد...¹.

لقد ركز ابن أبي الخصال في رسالته على المعنى وأشبعه قيمة لفظية مشعة طوال الرسالة، فقد طبع هذه الرسالة بطابعه ولونها بطريقته الخاصة، من حيث الاتكاء على الطبع الديني وتناول المعنى على نحو من التركيز والإيجاز مع نضاعة السلوب وطلاوة اللغة ومراعات السجع في أواخر الفواصل.

ومثال ذلك: (العز المكين، والحرز الأمين)، وأكثر من الدعاء كما في قوله: (رحمهم الله من طاعة أولي الأمر، قانعين بما استدل علينا من الكفاف والستر، لم نستزده-أعلى الله أمره...)، كما ضمّنها الاقتباس من القرآن الكريم في قوله: (إلى ركن شديد) وهي مقتبسة من قوله عز وجل: "قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ" هود الآية -80-.

وخلاصة القول مما درسناه ننتهي إلى عدة نتائج بالغة الأهمية منها:

- إنّ فن كتابة الرسائل في الأندلس هي امتداد للأدب العربي في المشرق.

¹أبي عبد الله بن أبي الخصال، رسائل ابن أبي الخصال، المصدر السابق، ص 497-498.

- انقسام الرسائل عند أبي الخصال إلى نوعين أساسيين هما: الرسائل الإخوانية والديوانية، كما تعددت المواضيع التي كتب فيها.

فللرسائل الإخوانية قيمة بالغة الأهمية، فهي من ناحية تظهر قدرة الأديب على التلاعب باللفظ والمعنى مع قوة السبك وجزالة والاستعانة بالبيان والبديع، كما أنها من ناحية أخرى تزخر بقيمة كبيرة من حيث ثقافتها واحتوائها على العديد من الأشعار العربية والأندلسية، وكذلك تضمنها للأمثال والقرآن الكريم، كما تتميز الرسائل الإخوانية في الأندلس بمحاكاتها للعديد من الرسائل في المشرق، من حيث الأسلوب، حيث عمدوا إلى الاستعانة بالسجع والتشبيهات والاستعارات.

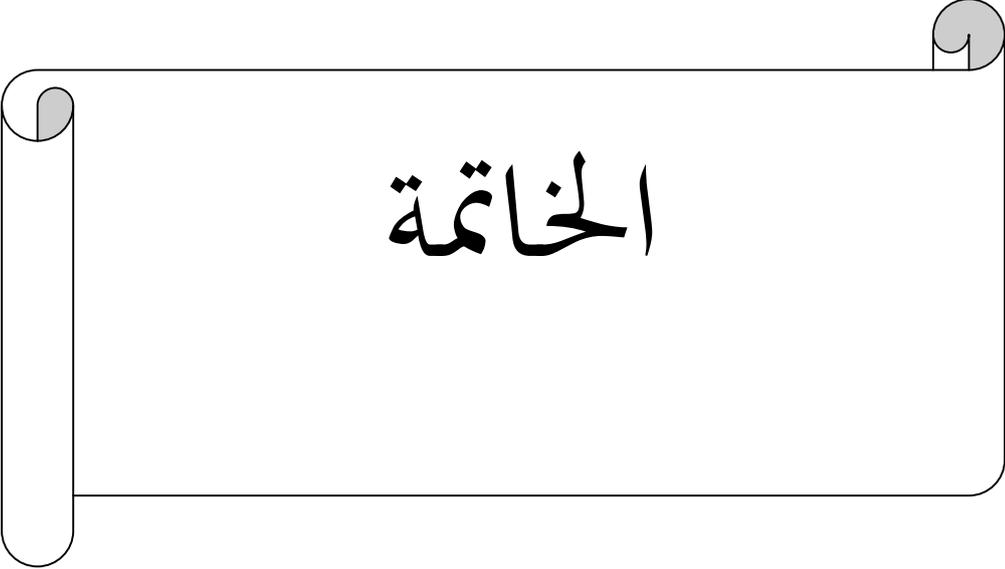
ولكن هذا التقليد من حيث الأسلوب لا يعني التقليد من حيث المعاني إذ استطاع الأندلسي أن يأتي في رسائله بمعاني جديدة مبتكرة تتوافق مع العصر الذي هو فيه فعبر عن الشوق بلغة عصرية متحضرة تتماشى والبيئة التي يعيش فيها.

أما الرسائل الديوانية فهي تتميز بجملة من الخصائص والتي منها المحدودية الزمنية وهذا ما كان سببا في قتلها، وضياع العديد منها ماعدا بعض تلك التي احتوتها عيون الكتب في الأدب الأندلسي "كالذخيرة" و"نفتح الطيب"، و"رسائل ابن أبي الخصال"، كما تتميز بمحاكاتها للرسائل الديوانية في المشرق، ولكن هذا التقليد لا يعني عدم التجديد وابتكار معاني جديدة، هذا فضلا على أن الرسائل الديوانية في الأندلس لا تسير على وتيرة واحدة، ولا تلتزم نمطا معيناً وإنما تتفاوت بتفاوت الأغراض ومقتضيات الأحوال.

كذلك من بين النتائج التي توصلنا إليها من دراسة هذه النماذج.

- طغيان الأسلوب الإنشائي على رسائل ابن أبي الخصال، كما اتسمت رسائله بالروح الشعرية.

- أيضا حرصه على الثراء الموسيقي الذي من عناصره الموازنة بين الجمل مع استخدام السجع.



الخاتمة

الخاتمة:

بعد تجوالنا في رحاب فنّ الرسالة توصلنا إلى مجموعة من النتائج منها:

- الأدب الأندلسي كغيره من الأدب، لم ينفصل أدباؤه عن مجتمعاتهم، بل إننا لا نبالغ إذا قلنا أن الأدباء الأندلسيون ضربوا أروع الأمثلة على إحساس الأديب بوطنه وتألمه لآلامه وحمله لهوموم، ووفائه لقضاياها، واستنفار الهمم في سبيله.
- إسهام أدب الرسائل في تسامي ورقي فنون النثر العربي.
- تطور أدب الرسائل من حيث الموضوعات والأغراض الفنية.
- نضوج واكتمال الصبغة الفنية لفن الرسالة.
- كشف هذه الرسائل عن مظاهر الحياة الاجتماعية والثقافية والفكرية إلى جانب الحضارة الأندلسية، والمؤثرات التي طغت عليها جرّاء الانفتاح الثقافي والحضاري.
- أبانت دراسة الرسائل الديوانية والإخوانية عن العلاقات الحميمة والترابط الاجتماعي، يُكشف بين أفرادها وتشيع رسائله بكثير من معاني الود والصفاء والتلاحم الاجتماعي النبيلة من تهنئة وتعزية ومعاتبة إلى جانب الاعتذار والعتاب.
- عرفت الرسائل الإخوانية نوع خاص من المقدمات جاء على شكل تمهيد قبل التوجّل في متن الموضوع.
- كشفت الرسائل الإخوانية عن فطنة وذكاء كتّابها والتي تظهر في حسن استعمالهم للدعاء في أول رسائلهم مما يضيف عليها جودة براعة الابتداء.

- أضفت الدراسة الجمالية الفنية للرسائل الأندلسية طابع إيقاعي خاص، كما تميزت بسهولة الألفاظ وجزالتها، مما يستدعي جلب الانتباه خاصة اعتمادها على المحسنات البديعية والصور البيانية من خلال جرسها الموسيقي العذب.
- أخذ الكتاب الأندلسيون الكتابة المتأنقة وأكثرها من استعمال المحسنات البديعية في رسائلهم على نحو ما كان يفعل الكتّاب المشارقة.
- إن فن الرسالة في الأندلس هي امتداد للأدب العربي في المشرق.
- لم تكن نصوص أدب الرسائل على مستوى واحد من الإيجاز والإطناب فهي تقصر وتطول حسب موضوع الرسالة والظرف الذي كتبت فيه.
- استطاع الكتاب الأندلسيون أن يرتقوا بأساليب تعبيرهم وأن يفتنوا فيها حتى لتبدوا بعض رسائلهم وكأنها شعر منشور.
- إن ما قدمناه حول الرسائل الديوانية والإخوانية نستخلص أنهما كانا من أهم الرسائل المتداولة وقد تنوّعت موضوعاتها وأعلامها، إلا أنهما يختلفان من حيث الألفاظ، فكاتب الرسائل الإخوانية حرّ فيما يكتبه لا يتخيّر الألفاظ فهي موجهة إلى شخص عادي مثله على عكس كاتب الرسالة الديوانية، يجب أن ينتقي كلماته بعناية بما أنها موجهة إلى سلطة عليا في الدولة.
- من أجل كل هذا كان اختيارنا لفن الرسالة، لنبيّن ما انطوت عليه مضامينها من أغراض، فإن وفقنا إلى كشف النقاب، فذاك من معونة الوهاب وإن قصرنا بعض التقصير فما ذاك من سوء العدة والإقدام، والله الموقّق إلى حسن الصواب.

وما توفيقنا إلاّ بالله عليه نتوكل وإليه ننيب

قائمة

المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم، برواية ورش عن نافع

أولاً- المصادر:

1. أبي عبد الله بن أبي الخصال، رسائل ابن أبي الخصال، تحقيق محمد رضوان الداية، دار الفكر، دمشق، ط1، 1988.

ثانياً- المعاجم:

1. ابن منظور محمد ابن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، ط3، 1414هـ، ج11.
2. جبور عبد النور، المعجم الأدبي، دار الملايين، بيروت، ط2، 1984.
3. عبد القادر الرّازي: مختار الصحاح، مكتبة لبنان، بيروت، د ط، 1988.
4. محمد بن علي التهنوي الحنفي، كشّاف اصطلاحات الفنون، د ط، د ت، مج 2.
5. محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، القاموس المحيط، تحقيق مكتب التراث في مؤسسة الرسالة، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، بيروت لبنان، ط8، 1426هـ-2005م.
6. مصطفى إبراهيم وزملاؤه، المعجم الوسيط، مج اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، د ط، 2005.
7. مصطفى أحمد علي السيوفي، ملامع التجديد في النثر الأندلسي خلال القرن ال 5هـ، عالم الكتب، بيروت، د ط، 1405 هـ/1985م.

ثالثا - المراجع:

8. ابن بسّام الأندلسي، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عبّاس، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 542هـ.
9. ابن ماجة أبو عبد الله بن محمد بن زيد القزويني، (ت275)، سنن ابن ماجة، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، المكتبة العلمية، بيروت، لبنان، مجلد(1).
10. أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، المؤسسة المصرية العامة للطباعة والنشر، ج14، د ط، د ت.
11. أبو القاسم الكلاعي، أحكام صنعة الكلام، تحقيق محمود رضوان الداية، دار الثقافة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، د ط، 1966م.
12. أبو هلال العسكري، الصناعتين، الكتابة والشعر، تحقيق علي محمد البحراوي وزملائه، المكتبة العنصرية، بيروت، لبنان، 1419هـ، ص435.
13. إحسان عبّاس، تاريخ الأدب الأندلسي(عصر الطوائف والمرابطين)، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 1997.
14. أحمد الهاشمي، جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، ج1، د ط، د ت.
15. أحمد بن حسين المتنبي أبو الطيّب، شرح ديوان المتنبي، ج4، دار بيروت للطباعة والنشر، ط1، 1900 م.

16. أحمد بن محمد المقرئ التلمساني، أزهار الرياض في أخبار عياض، ج4، تحقيق سعيد أحمد أعراب، طبعته تحت إشراف اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي، د.ب، د.س.
17. أحمد بن محمد المقرئ، نفع الطيب من غصن الأندلس، ج1، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط1، 1968.
18. بطرس البستاني، التوابع والزوابع، دار صادر، بيروت، د ط، 1980.
19. الجاحظ، البيان والتبيين، ج2، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة، ط7، 1418هـ-1997 م.
20. حسين نصّار، نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، ط1، 2002.
21. سامي يوسف أبو زيد، الأدب الإسلامي والأندلسي، دار المسيرة، الأردن، ط1، 2012.
22. السيد أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، دار الفكر، بيروت، لبنان، طبعة مجددة، 2003.
23. شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي (عصر الدولة والإمارات-الأندلس، دار المعارف، د ط، مصر، 1989).
24. الطاهر توات، أدب الرسائل في المغرب العربي، ج1، ديوان المطبوعات الجامعية، ط2.

25. عبد الحليم حسين الهروط، النشر الفني عند لسان الدين ابن الخطيب، دار جرير للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 1426هـ، 2006م.
26. عبد الرحمان ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، م1، دار الجيل للطباعة والنشر، ط1، 732-808 هـ.
27. عبد الرحمان بن عبد الله، فتوح إفريقية والأندلس، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1987، ص69.
28. أبو العباس أحمد بن عذارى، بيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، حققه ج-س كولان وليفي برفنسال، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ج2.
29. عبد الرحمان علي الحججي، تاريخ الأندلس منذ الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة، دار القلم، دمشق، ط3، 1907، 1987.
30. عبد العزيز عتيق، الأدب العربي في الأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، ط2، 1976.
31. العربي سالم الشريف، دراسات في الأدب الأندلسي، دار شموع الثقافة للطباعة والنشر، د ب، ط1، د ت.
32. علي بن محمد، النشر الأدبي الأندلسي في القرن الخامس، مضامينه وأشكاله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1990.
33. عمر ابراهيم توفيق، الوافي في تاريخ الأدب العربي موضوعاته وفنونه، دار غيداء للنشر والتوزيع، العراق، ط1، 1433هـ-2012م.

34. فايز عبد النبي القيسي، أدب الرسائل في الأندلس، دار البشير، عمان، الأردن، ط1، 1409هـ، 1979م.
35. محمد أبو إمام، جوانب من النشاط العلمي في الأندلس خلال العصر الأموي، دراسات دعوية، العدد 11-يناير، 2006م.
36. محمد بن علي الحسيني المرحباني الحنفي، التعريفات، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1424هـ، 2002م.
37. محمد عبد الحميد عيسى، تاريخ التعليم في الأندلس من القرن الخامس إلى سقوط الأندلس، مؤسسة أهل البيت، التربية العربية الإسلامية (المؤسسات والممارسات)، ج2، دار الفكر العربي، القاهرة، ط1، 1982.
38. محمد لسان الدين ابن الخطيب، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، مطبعة التقدم الإسلامية، تونس، د ط، د ت.
39. محمد يونس عبد العالي، في النثر العربي قضايا وفنون ونصوص، الشركة المصرية للنشر، مصر، ط1، 1996.
40. محمود عبد الرحمان صالح، فنون النثر في الأدب العباسي، دار جرير للنشر والتوزيع، عمان، ط2، 1426هـ-2006م.
41. محي الدين بن عبد الله المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان، القاهرة، 1387هـ-1967م.

42. مصطفى السباعي، القلائد من فرائد الفوائد، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، د ط، 1988.

43. مصطفى الشكعة، الأدب الأندلسي وموضوعاته وفنونه، دار العلم للملايين، لبنان، ط10، 2000.

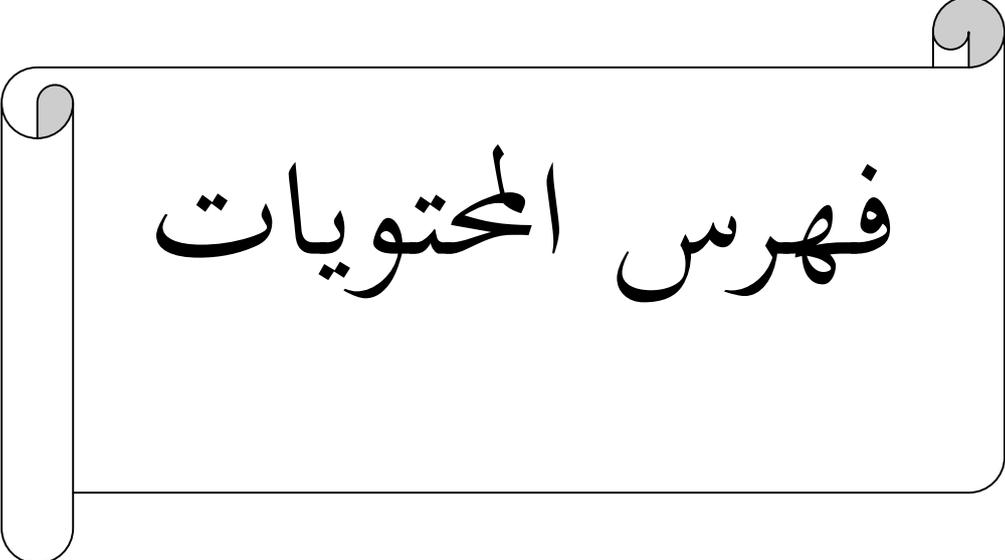
44. يوسف العريبي، الحياة العلمية في الأندلس في عصر الملوك والطوائف، منشورات مكتبة الملك عبد العزيز العامة، الرياض، 1416هـ-1995م.

الرسائل والمقالات العلمية:

45. أنور محمود زناقي، العمل والتعليم في الأندلس، مقالات متعلقة بشبكة الألوكة، 1436هـ-2015م.

46. حاج عبد القادر يخلف، الإسهام الفكري للبربر بالأندلس من العهد العامري إلى نهاية الوجود المرابطي، رسالة ماجستير، قسم التاريخ وعلم الآثار، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، 2008-2009م.

47. سعد عبد الله، الحياة العلمية في عصر ملوك الطوائف في الأندلس، 422-488هـ، منشورات مركز فيصل، الرياض، 1414هـ/1993م.



فهرس المحتويات

فهرس المحتويات	
الصفحة	الموضوع
الشكر والعرفان	
أ-ج	مقدمة
مدخل: حركة التعليم في الأندلس	
05	النشاط العلمي ف الأندلس
06	أماكن التعليم في الأندلس
08	تطور الحركة العلمية
الفصل الأول: في فن الرسالة والنثر الأندلسي	
12	أولا/ الرسالة الأدبية في فضاء المصطلح والمجال:
12	أ/ الرسالة لغة
14	ب/ الرسالة اصطلاحا
16	ج/ الرسالة في الأندلس
19	ثانيا/ النشأة والتطور
23	ثالثا/ موضوعاتها وأغراضها
24	1- الرسائل الإخوانية
24	أ/ العتاب
25	ب/ الإعتذار والإستعفاف
25	ج/ الإستمناح والطلب
26	د/ التهنة

26	هـ/ التعزية
27	و/ الشفاعة والوصايا
28	2- الرسائل الديوانية
29	أ/ التوقيعات
30	ب/ العهود
31	ج/ التولية والتعيين
31	3- الرسائل الدينية
32	أ/ التحميدات والتسبيحات
32	ب/ الشوق والوجد الديني
33	ج/ الزهد والوعظ
34	4- الرسائل الفكرية
34	أ/ رسائل فكرية
35	ب/ رسائل مختصة بالكتابات العلمية ذات الصبغة العلمية والأدبية
35	ج/ رسائل لإظهار البيان
36	5- الرسائل الحربية
37	6- الرسائل الوصفية
39	رابعا/ أهم خصائصها الفنية
39	1- البدء والعرض والختام
40	● المقدمة والإستهلال
40	● الغرض/الموضوع

41	● الخاتمة
41	2- الاقتباس والتضمين
42	3- الإيجاز والإطناب
44	4- سهولة الألفاظ وجزالتها
45	خامسا/ أشهر كتّابها في الأندلس
46	1- ابن الدّبّاغ
49	2- ابن عبد البرّ
51	3- ابن طاهر
الفصل الثاني: الدراسة الفنية	
56	أولا: البناء الفني للرسالة
56	1- هيكل الرسالة
56	أ/ مقدمة الرسالة
58	ب/ موضوع الرسالة
61	ج/ خاتمة الرسالة
62	ثانيا/ التعريف بالمدونة
64	ثالثا- السمات اللغوية لرسائل ابن أبي الخصال
65	أ/ اللغة
66	ب/ الأسلوب
67	ج/ الإيجاز والإطناب
68	د/ الإقتباس والتضمين
72	رابعا/ دراسة موضوعية لنماذج مختارة

72	1- الرسائل الإخوانية
73	أ/ التهنة
76	ب/ التعزية
77	ج/ التهادي (الإهداء)
79	د/ العتاب
80	هـ/ الوصايا والشفاعة
83	و/ الاعتذار
84	2- الرسائل الديوانية
90	الخاتمة
93	قائمة المراجع
100	فهرس الموضوعات
	الملخص

الملخص:

إن الرسائل شكل من أشكال النشر الفني الجميل، وفن من الفنون الأدبية البارزة في المجتمع الأندلسي تؤثر فيه ويؤثر فيها، فالكتابة بشكلها الفني مظهر من مظاهر الحضارة، وعنوان من عناوين التقدم ومقياسا لثقافة أي امة من الأمم، ومستوى معرفتها.

وتعد الرسائل من الفنون القولية ذات الأهمية البالغة في حياة الأفراد والمجتمعات والشعوب، وقد كان للحضارة العربية الإسلامية نصيب وافر من العناية بهذا الفن عبر العصور المختلفة، فقد كانت كتابة الرسائل أفضل مراتب الكتابة وأعلى مناصب الوجاهة، وهذا سبب كافي جعل الكتاب والأدباء يتوفرون على تزيين رسائلهم وتنميقها، حتى أصبحت من اهم الأجناس الأدبية التي تبين قدرة الأديب الفنية وعنوان براعته الأسلوبية ومعرفة شخصيته الأدبية.

ومن هذا المنطلق فقد كانت دراستنا هذه مواكبة لهذا الجانب من الجنس الأدبي من خلال الموروث الذي خلقه الكتّاب الأندلسيون، الذين استطاعوا ان يرتقوا بأساليب تعبيرهم وان يفتنوا بها بما أوتوه من موهبة فذة، وذوق جميل وأصيل.

الكلمات المفتاحية: فنّ الرسالة، الإخوانية، الديوانية، الأندلس، حركة التّعليم.